قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية

ورئيس المغيرين

الجزء الخامس

يشمل

١ — أمهات المؤمنين

٢ — بعض النساء الشهيرات

الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

الإهداء

إلى روح (السيدة خديجة) رضى الله عنها

إلى أول انسان أسلم، وآمن وصدّق برسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى أول امرأة تزوجها النبى عليه الصلاة والسلام

إلى أسعد زوجة فازت وتمتعت بأشرف زوج

إلى أفضل نساء أهل الجنة بنص الحديث الشريف :

« أفضل نساء الجنة: خديجة ، وفاطمة ، ومريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون »

أهدى هذا الكتاب، راجياً من الله النفع به، وجزيل الأجر والثواب وحسن المآب

السيد على فكرى

ابن المرحوم السيد محمد عبد الله

مصر الجديدة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣

٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي وعليه توكلي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأزواجه الطاهرات، أمهات المؤمنين

وبعد ، فان الاطلاع على سير أمهات المؤمنين، وشهيرات النساء، لمن أعظم وسائل التربية والتهذيب ؛ لأنها تدور حول التأسي والاقتداء ، ولا شيء يؤثر فى النفس مثل القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

وقد كثرت فى هذه السنين القصص الوضعية ، والروايات الغرامية ، ومعظمها مفسد لأخلاق البنات ؛ بل والسيدات اللاتى أصبحن أشد شغفاً بقراءتها ، وحضور تمثيلها

لهذا جعلت فى هذا الجزء السير الشريفة لأمهات المؤمنين ، والدة النبى صلى الله عليه وسلم وزوجاته، وغيرهن من شهيرات النساء الشريفات الطاهرات، من السلف الصالح ليكون فى مطالعتها ودراستها أحسن أسوة

للبنات، وأعظم قدوة للسيدات، يتخذنها نبراساً لارشادهن الى الطريق الأقوم وتهذيباً لأخلاقهن ، وعظة وعبرة لهن ؛ لأن فيها قصصاً ، وأمثلةً وعبراً كثيرة ، تدل على محاسن الأقوال ، وجليل الفعال ، وشريف الخصال ، التى يجب أن تتخلق بها كل بنت وسيدة ؛ لتنال اسماً شريفاً ، وسمعةً طيبةً ، وذكراً خالداً

والله الهادى الى سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣

٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٤

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله

امهات المؤمنين

١ — السيدة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ

نسبها – هى السيدة آمنة ابنة وهب بن عبد منـاف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب أم النبى صلى الله عليه وسلم

مناقبها – أعطاها الله تعالى من الجمال والكمال ما كانت تدعى به حكيمة قومها

وكانت من الفصاحة والحكمة والبلاغة على جانب عظيم لم يسبقها اليه أحد من نساء العرب

وفاتها – توفيت بعـد مولد النبى صلى الله عليه وسـلم بست سنوات ودفنت (بالابواء)

والسبب فى دفنها هناك أن (عبد الله) والد الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد خرج الى المدينة يمتار تمراً فمات بالمدينة، فكانت زوجته آمنة تخرج الى المدينة تزور قبره، فلما أتى على رسول الله صلى الله وسلم ست سنوات خرجت زائرة لقبره ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله ، فلما صارت (بالابواء) منصرفة الى مـكة ماتت بها

ويقال : ان أبا طالب زار أخواله بنى النجار بالمدينة وحمل معه آمنة فلما رجع منصرفاً الى مكة ماتت آمنة بالأبواء. وقيل : دفنت (بدار رائعة) وهو موضع بمكة، وقيل بمكة فى شعب (أبى دب) وكانت من شاعرات العرب المجيدات: ومن شعرها قولها، وهى فى نزع الموت، وكانت نظرت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يلعب بجانبها، فأسفت على تركه صغيراً وأنه سينشأ يتيماً من الأب والأم؛ ولكن تأست بما يناله من الفخر والمجد فى قومه وفى العالم بأسره مما رأته منه فى حال صغره ومما رأته فى منامها فقالت :

« بارك الله فيك من غلام   يا بن الذى فى حومة الحمام »

« نجا بعون الملك العلام   فودى غداة الضرب بالسهام »

« بمائة من إبل سوام   إن صح ما أبصرت فى المنام »

« فأنت مبعوث إلى الأنام   تبعث فى الحل وفى الحرام »

« تبعث بالتوحيد و الإسلام   دين أبيك البرّ ابراهام »

« فالله أنهاك عن الاصنام   ألَّا تواليها مع الأقوام »

ثم قالت : كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة وذكرى باقٍ وأسلمت روحها. وقيل: أن بعضهم رثاها بهذه الابيات:

« نبكى الفتاة البرّة الأمينه   ذات الجمال العفّة الرزينه »

« زوجة عبد الله والقرينه   أم نبى الله ذى السكينه »

« وصاحب المنبر بالمدينه صارت لدى حفرتها رهينه »

« لو فوديت لفوديت ثمينه وللمنايا شفرة متينه »

« لا تبق ظعَّانا ولا ظعينه إلَّا أتت وقطعت وتينه »

« أما دللت أيها الحزينه عن الذى ذو العرش يعلى دينه »

« فكلنا والهة حزينه نبكيك للعطلة أو للزينه »

« من كتاب الدر المنثور »

« فى طبقات ربات الخدور »

٢ – السيدة خديجة بنت خويلد

أم المؤمنين رضي الله عنها

نسبها – كانت السيدة خديجة من أشرف نساء قريش نسباً ، وأوفرهن مالاً ، وأرجحهن عقلاً ، وأجملهن خَلقاً وَخُلقاً ، جمعت فى تلك النفس العالية كل مزية مشرفة ، وخصلة باهرة ، أبوها (خويلد) من أشراف قريش ورجالاتها البارزين ؛ أما أمها فهى (فاطمة) ويتصل حبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة وبذلك أصبحت (أم المؤمنين السيدة خديجة) أقرب الزوجات الطاهرات إلى النبى صلى الله عليه وسلم نسباً

أدركت آواخر عهد الجاهلية وكانت لها مكانة سامية بين قومها لجمال خَلقها وَخُلقها وكانت تدعى فى الجاهلية (بالطاهرة) لطهارة سيرتها ونقاء سريرتها ، وقد اشتهرت من بين نساء قومها بحصافة العقل ، وجودة الرأى وطهارة القلب ، فخطبها لأول مرة (عتيق بن عابد) فتزوجته ثم مات عنها فتزوجت شريفاً آخر هو (أبوهالة) وولدت منه ولداً اسمه (هند) إلا أنه لم يعش طويلاً وترملت مرة ثانية

ظلت السيدة خديجة فى نضارة الشباب ، تحف بها أسباب الرفاهة والعز تقطن منزلاً فخماً ، وحولها العبيد والجوارى ، فترفعها الأنظار وترمق

ماهى فيه من عز وفخار، ويتكاثر حولها طلاب يدها، أى زواجها من أعيان قريش ووجوهها فترفض كل طلب من غير أن تفضل أحداً على أحد

زواجهـا من رسول الله : لقـد منَّ الله عليها بزواجها من محمـد صلى الله عليه وسلم بعد أن رأت أمانته، ورجحان عقله وأصالة رأيه، وكرم خلقه، وذلك بحضور عمه أبى طالب وحمزة بمنزل عَمرو بن أسد عم السيدة خديجة فى جمع عظيم من كرام قريش ونجباء عشيرتهم حيث نهض عَمرو ابن أسد فقال :

(اشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوجت محمد ابن عبد الله خديجة بنت خويلد)

فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين النيرين ، وقد بذل لها من الصداق ست أواق من الذهب وقيل ٤٠٠ دينار ، وبهـذا أصبحت (خديجة الطاهرة) زوجة محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا صادق القوم على زواجه منها : وكان الرسول جالساً بجانبهـا أثناء العقد ، فلما انتهت الصيغة طلبت إليه أن ينحر جزوراً من الابل التى أصدقها عمه أبو طالب مهراً، فنحر إحداها فى الحال، وأطعم القوم، وأمرت خديجة نساءها بالرقص فرقصن وغنين (وهى أول وليمة أولمها صلى الله عليه وسلم)

أما الرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أفعم صدره سرورا حتى أن

عمه أبا طالب عند ما لاحظ حالته الروحيه حمد الله كثيراً

١ — مثال الزوجة الصالحة

كانت خديجة فى بيتها مع زوجها الجليل فخر النساء والمثل الأعلى فى المودة والوداعة، وحسن المعاشرة والترفع عن الكلفة، و بذل المعونة، تقوم بواجباته وقضاء لوازمه بجلال خاص بها

وتجتهد فوق ذلك كله بكل ما آتاها الله من ذكاء وفطنة، و بكل ما جبلت عليه من شفقة ورحمة ورقة، أن تجعل أيام حياته تمر براحة وهناء وأنس ووفاء

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى نظرها شخصاً فذاً ممتازاً يستحق الحب الصادق، والتقديس الواجب

وكانت السيدة خديجة فى نظره الزوجة الطيبة الصالحة، وكانت أول من أسلم وآمن به

ولهذا مضت حياتهما المشتركة فى وئام وسلام، فقضيا خمساً وعشرين ربيعاً لم يعكر صفوهما عتاب صغير أو غضب طفيف

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصها باحترام كبير فلها فى نفسه أسنى منزلة، وفى قلبه أسمى مكان، لا يفتأ يعترف بفضلها، حتى أنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج من غيرها مع أنها كانت أكبر منه

سنًا، تزوجها وسنه ٢٥ سنة وقيل: ثلاثون سنة وهى فى سن الأر بعين وأقامت معه ٢٤ سنة

وقد رزقت منه صلى الله عليه وسلم ستة أولاد : ابنان ،وهما القاسم وعبد الله،وأربع بنات وهن : زينب، ورقية،وأم كلثوم،وفاطمة الزهراء

وفاتها - توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين فى شهر رمضان(بالحجون) وهى ابنة ستين سنة ، ونزل صلى الله عليه وسلم فى حفرتها وحزن عليها حزنًا شديداً وعظمت عليه مصيبتها

٢ — مثال من حبها للعمل والتجارة واستثمار المال

لما رأت عندها مالاً وافراً لم تتكل عليه، ولم تنفقه فى زخرف الحياة الباطلة ؛ بل فكرت فى أحسن الطرق لتثميره ، فرأت أن التجارة أشرف سبيل ، ولا تكون رابحة إلا إذا قام بها الرجل الكفء النشيط الأمين ، فكانت تختار من قومها من ترضى سيرته، فاختارت برأيها الثاقب محمداً صلى الله عليه وسلم النبى الأمين، فأرسلته فى تجارة لها مع غلامها (ميسرة) الى الشام،وكان عمره وقتئذ خمسًا وعشرين سنة،وعرضت عليه أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فسار بتجارتها ولما رجع بالبضائع باعتها، فربحت ربحًا عظيمًا ، وأصابت بذلك خيراً

عميماً ، وأوصلها الى السعادة الدائمة ، وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة خديجة مع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

من هذا يفهم أنها رضى الله عنها كانت مفكرةً عاقلةً بعيدة النظر ، سديدة الرأى، حسنة الاختيار ،لأنها اختارت الكفء الأمين للعمل فى مالها فاستفادت أحسن الفوائد

٣ — مثال من شجاعتها وصدق إيمانها وعزيمتها

كان الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم يتعبد فى غار حراء، وكانت زوجُه السيدة خديجة تعدُّ له مايلزم من الزاد حتى اذا مانفد أعدت له غيره ، ولما نزل عليه الوحى بسفارة جبريل ورجع إليها ممتقع اللون قالت له : أبشر فوالله لايُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتؤدى الأمانة ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق

ثم ذهبت به إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأعلمته بشأنه وسألته خديجة بعد ذلك قائلة : يا ابن العم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك ؟ قال : نعم . فجاءه جبريل فأعلمها ، فقالت له : قم فاجلس على فخذى اليسرى ففعل ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم .

قالت : فتحول على فخذى اليمنى . ففعل، فقالت هل تراه ؟ قال : نعم . فألقت خديجة خمارها، ثم قالت : هل تراه ؟ فقال : لا . قالت : يا ابن العم اثبت وأبشر فانه ملك وما هو بشيطان

فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه

ولما علمه جبريل الوضوء والصلاة أتى إلى خديجة وعلمها فتوضأت كوضوئه وصلت كصلاته

ولما سألت خديجة ابن عمها (ورقة بن نوفل) عن شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وقصّ عليه الرسول الكريم قصته قال له : إن الذى نزل عليك هو الملك الذى كان ينزل على موسى و إنك لنبى هذه الأمة فاطمأن بذلك فؤاده الشريف

فمن هذه القصة يفهم أن السيدة خديجة كانت شجاعة قوية القلب صادقة العزيمة إذ لو فوجئت بهذه الحادثة العجيبة امرأة غيرها لضاع فكرها وارتبك أمرها

٤ — مثال المرأة الصبورة المعينة لزوجها على تحمل الأذى

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنوات يدعو قومه سرًّا ، ثم أمر بالجهر بالدين فكان ذلك

وقد وجد عليه الصلاة والسلام من قومه فى أثناء هذه الدعوة

مالايحتمله غيره سخراً وعناداً وهزؤاً ، وابتعد عنه الأقرباء ، وحرضوا عليه السفهاء فصبر على أذاهم ودأب فى دعوته

وكانت السيدة خديجة تسعى فى تخفيف آلامه ، وتساعده على دعوته، وتتحمل الأذى من أجله، صابرة لاتشكو ألماً ولا ضجراً، ولا تؤثر الراحة على ماتلاقيه من أنواع الأذى

فكانت السيدة خديجة بهذا العمل تضرب الأمثال للنساء لتعلمهن أن المرأة الصالحة الصابرة الشكورة أكبر مساعد لزوجها فى المِلمَّات تفديه بمالها وبنفسها

بعض الأحاديث الواردة بشأنها

١ — ذكر سلام الله تعالى على خديجة رضى الله عنها على لسان جبريل عليه السلام وسلامه

عن أبى هريرة قال : أتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد خديجة قد أتتك باناء فيه إدام أو طعام أو شراب فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى (أخرجه الشيخان)

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ياخديجة إن جبريل يُقرئك السلام

وفى رواية أخرى : ان جبريل قال : يامحمد أقرىء خديجة من ربها السلام. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياخديجة هذا جبريل يُقرئك من ربك السلام . قالت خديجة ، فى أحسن جواب وأكرم خطاب : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام

٢ — ذكر تبشير النبى ﷺ خديجة عليها السلام ببيت فى الجنة

عن أبى هريرة ، أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ماحسدت امرأة ماحسدت خديجة وما تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا بعد ما ماتت وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّرها ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب

٣ — ذكر ثناء النبى ﷺ على خديجة رضى الله عنها

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها . فغِرْتُ يوماً وقلت : ما أكثر ماتذكرها ، حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها فقال :

ما أبدلنى الله خيراً منها ، قد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى أولادها إذ حرمنى أولاد النساء

وعنها أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر ذكر خديجة، فقلت : لقد أخلفك الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين . قالت : فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعراً ما كنت أراه منه إلا عند نزول الوحى، وإذا رأى المخيلة حتى يعلم أرحمة أم عذاب ؟

٤ — ذكر أنها أفضل نساء أهل الجنة رضى الله عنها

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة خطوط وقال : أتدرون ماهذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أفضل نساء الله فى الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون

٣ – السيدة عائشة رضى الله عنها

أم المؤمنين

نسبها – السيدة عائشة رضى الله عنها هى بنت (أبى بكر الصديق) رضى الله عنه ابن (أبى قحافة) من أعلام قريش عزاً وجاهاً وأحد الأربعة المقربين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمها (أم رومان) بنت (عامر بن عويمر الكنانية) وكان مولدها سنة أربع من المبعث

زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم : عقد عليها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام الثالث من انتقال زوجته السيدة خديجة الى دار الخلد والبقاء ، إلا أنه لم يدخل بها فى عامه ؛ لأن الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة وقتئذ ، وكان صداقها أربعمائة درهم

وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين وقيل : سبع ، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع وقيل : عشر وكانت أحب نسائه اليه ، وكنيتها (أم عبد الله) ابن اختها (أسماء بنت أبى بكر) وهى الزوجة الثالثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تزوج قبلها (سودة بنت زمعة) تزوجها فى السنة العاشرة من النبوة ، وكانت

متزوجة قبله ابن عمها ، ولما كبرت أراد طلاقها صلى الله عليه وسلم فسألته ألّا يفعل ، وجعلت يومها لعائشة ، وعاشت إلى أن ماتت فى خلافة عمر رضى الله عنه

محبة الرسول لها — كانت أم المؤمنين (السيدة عائشة) أحب نساء الرسول اليه ، وكان يلقبها الرسول صلى الله عليه وسلم (بالحُميراء) ويحبها محبة أكيدة ، وكان من دواعى سروره صلى الله عليه وسلم أنه يرضيها ويعمل مافيه سرورها وراحتها وهناءتها ، حتى توثقت محبته لها وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر

فمن أمثلة محبته لها: أنه قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس عندها مامعناه :

«إننى أعلم وقت غضبك منى حيث تقولين إذ تحلفين: ورب ابراهيم؛ أما إذا كنت راضية عنى فتحلفين برب محمد »

فأجابت : اننى يارسول الله اذا غضبت أغفلت اسمك ، فأما حبى لك فلا يتغير

كان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى أكثر أوقاته بجانب زوجته المحبوبة عائشة وكان الناس أملاً فى الحصول على رضا الرسول صلى الله عليه وسلم يتقدمون بهداياهم يوم عائشة

وكان الوحىّ ينزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو بجانبها . فلذلك

كانت السيدة عائشة تشاركه فى تأثراته النبوية. إذ كانت واقفة على دقائق أحواله وحركاته.وكل شأن من شئونه

وقد شكا زوجات النبى صلى الله عليه وسلم من تحرى المسلمين يوم عائشة لهداياهم ، فاجتمعن الى (أم سلمة) التى تقدمت بذلك الى الرسول صلى الله عليـه وسلم ورجته أن يحذر الناس من ذلك . فقال لها : «لاتؤذينى فى عائشة ، فانه والله مانزل علىّ الوحىُّ وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها »

لم تيأس (أم سلمة) من هذا الإخطار النبوى ؛ بل عادت الى تحقيق أملها ، وتوسلت هذه المرة (بفاطمة الزهراء) التى جاءت الى أبيها تخبره بذلك

إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألها : هل تحبين من أحبه ؟

فلما ردت عليه بالايجاب قال لها : إذن أحبى عائشة

لقد كانت لعائشة رضى الله عنها منزلة سامية فى نفسه صلى الله عليه وسلم ، حتى كان يقول لزوجه الطاهرة : «ان حبه لها كالعروة الوثقى التى لا انفصام لها »

فـكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر اطمئنانا على مكانة هذه المحبة فتقول : كيف حال العروة يارسول الله ؟ فيجيبها : أنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل

غيرة نساء النبى منها – ونظراً لشدة حب الرسول عليه الصلاة والسلام لعائشة كانت نساؤه يَغرن منها، فأرسلن السيدة فاطمة رضى الله عنها الى النبى صلى الله عليه وسلم وقلن لها: قولى له ان نساءك قداجتمعن الىَّ وهن يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة

قالت عائشة رضى الله عنها: فدخلت فاطمة على أبيها وهو معى فى مِرْط (كِساء)، فقالت له:

ان نساءك أرسلننى اليك، وقد اجتمعن وهن ينشدنك العدل فى بنت أبى قحافة

فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أتحبيننى؟ قالت: نعم. قال: فأحبيها

فرجعت فاطمة اليهن وأخبرتهن بما قال لها. فقلن لها: انك لم تصنعى شيئًا، فارجعى اليه، فقالت: لا والله لا أرجع اليه فيها أبداً. وكانت بنت أبيها حقًا (أخرجه أبو حاتم والنسائى)

غيرتها – عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً

قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ماأصنع فقال: مالك ياعائشة أغرت؟ فقلت: ومالى لايغار مثلى على مثلك؟ فقال: أقد جاءك شيطانُك؟ فقلت: يارسول الله ومعى شيطان؟ قال: نعم. قلت: ومع كل انسان؟

قال : نعم. قلت: ومعك يارسول الله ؟ قال : نعم ؛ ولـكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم ـ أخرجه مسلم

وعن أم سلمة : أنها أتت بطعام فى صحفة لها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فجاءت عائشة رضى الله عنها مستترة بكساء ومعها فهر فتلقت به الصحفة فـكسرتها . فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين فلقتى الصحفة يقول : غارت أمكم ، غارت أمكم

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم صحفة عائشة رضى الله عنها فبعث بها الى أم سلمة وأعطى صحفة أم سلمة عائشة رضى الله عنها

قالت رضى الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وخرج معه نساؤه، قالت: وكان متاعى فيه خف ، وكان على جمل ناج (أى مسرع) وكان متاع (صفية بنت حيي) فيه ثقل ، وكان على جمل ثقال بطىء ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : حولوا متاع عائشة على جمل صفية ، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضى الركب

قالت عائشة رضى الله عنها : فلما رأيت ذلك قالت : يالعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أم عبد الله ان متاعك كان فيه خف وكان متاع صفية فيه ثقل ، فأبطأ بالركب فحولنـا متاعها على بعيرك ،

وحولنا متاعك على بعيرها ، قالت : فقلت أليس تزعم أنك رسول الله؟ قالت : فتبسم وقال : أو فى شك أنت يا أم عبد الله ؟ قالت : فقلت أو لست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت ؟ فسمعنى أبو بكر وكان فيه غَرْب (أى حدَّة) فأقبل علىّ ولطم وجهى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا أبا بكر . فقال: يارسول الله أولم تسمع ماقالت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الغيرة لاتبصر أسفل الوادى من أعلاه ، أى أن الذى دفعها الى ذلك هو غيرتها ، وان المرأة اذا غارت لاتدرى ماتقول ، بل تكيل القول جزافاً

قناعتها و زهدها واحسانها — قد أثرت تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم العالية فى نفسها الكريمة، ووجدت منبتاً صالحاً، حتى تشرب قلبها النبيل مبادىء الزهد والقناعة ، فكان (عروة بن الزبير) يقول عنها : رأيتها تتصدق بسبعين ألف درهم فى سبيل الله وهى فى قميص خَلِق ترقع درعها (قميصها)

وبعث معاوية إلى عائشة بطوق من ذهب فيه جوهر كثير ثمين فقسمته بين أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا كرم شديد ، ونفس سمحة ، وسخاء وافر ، وزهد فى الدنيا ، وشدة إيمان بالآخرة

وجاءها مال فى غرارتين (ثمانون ومائة وألف درهم) وهى يومئذ صائمة فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم . فلما

أمست قالت : ياجارية هلمى أفطرى ، فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة : ما استطعت أن تشترى لنا بدرهم لحماً فنفطر عليه ؟

قالت : لاتعنفيني لو كنت ذكرتني لفعلت

فأى سيدة شريفة مثلها التى آثرت الناس على نفسها ، وعلى أى شيء أفطرت ؟ وكم مقدار تواضعها فى خطابها لخادمتها ؟

برّها بأهلها – قال القاسم بن محمد بن أبى بكر : لما قتل أبى بمصر جاء عمى وحملنا الى المدينة فأرسلت عمتى عائشة واحتملتنا من منزله فما رأيت والدة ولا والدا أبرَّ منها ، فلم نزل فى حجرها (تحت رعايتها) الى أن بعثت الى عمى وتكلمت معه فى أمرنا فما رأيت أبلغ منها

وكان مما قالت : يا أخى إنى لم أزل أراك معرضاً عنى منذ قبضت هؤلاء الصبية منك ، والله ماقبضتهم تطاولاً عليك ، ولا تهمة لك فيهم ، ولا لشيء تكرهه ، ولكنك كنت رجلا ذا نساء ، وكانا صبيين لا يكفيان من أنفسهما شيئاً فخشيت أن ترى نساؤك منهما ماتتقذرن به (تكرهنه) من قبيح أمر الصبيان ، فكنت ألطف لذلك ، وأحق بالولاية

أما الآن فقد كبرا وصارا يمكنهما أن يدفعا عن أنفسهما تعديات غيرهما فاقبضهما اليك ، فانصرف عليها مثنياً ، وعنها راضياً

يستنبط من هـذه القصة أنها كانت شفيقة ، بَرَّة ، بعيدة النظر ، قوية الحجة ، فصيحة اللسان

برّها بالغير – كانت تبذل مالديها من مال ونسب فى وجوه البر والخير بالغير ، وقضاء جاجات أهل العوز والمساكين ، وفى إعلاء كلمة الدين . وعندما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المـال فى زمن خلافته وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان يعطى كلا منهن عشرة آلاف درهم إلَّا عائشة فقـد جعل لها إثنى عشر ألفًا ، وذلك لأنها كانت محبوبة للرسول صلى الله عليه وسلم

ولذا كان تصرفها فى وجوه البر والإحسان ببنى الإنسان

صفاتها الشريفة وعلمها الغزير – للسيدة عائشة رضى الله عنها ميزة خاصة ، وشرف واحترام بين مخدرات العالم الإسلامى لم تتوافر لسواها من السيدات ، فقد كانت أديبة ، لبيبة ، عالمة ، خطيبة ، شاعرة من أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسنهم رأيًا فى العـامة ، وعنها يقول عروة بن الزبير :

ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن، ولا بفقه ولا بشعر ، ولا بحديث من عائشة رضى الله عنها، ولها خطب شهيرة ، وكان معاوية يقول : لم أسمع خطيبا أبلغ ولا أفصح من عائشة

يالهمن فخار تحوزه السيدة عائشة، تلك التى استطاعت فى فترة كبيرة من حياة الرسول الشريفة أن تدخل عليه السرور والراحة ، وتعمر قلبه بالغبطة والأُنس، فكانت أمام عينيه الشريفتين المثل الأعلى للسعادة وما كان ينقصها فى حياتها إلَّا أن تكون أمًّا لكيلا تحرم من التكنى باسم طفلها؛ إلَّا أن سيد الكائنات لم يدع سبيلا إلى غمها من هذا القبيل فكنَّاها بابن اختها (عبدالله بن الزبير) إذ كان قد درج فى البيت النبوى وشبَّ بين أحضان الأُسرة النبوية المطهرة

وكانت من أحب خلق الله اليه هى وأبوها الصديق ، كيف لا وقد أضاءت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعلمها وجمال نفسها حتى صارت الدرة اللامعة فى تاج تلك الأيام السعيدة المباركة

وقيل : انها روت ألفى حديث ومائتى حديث وعشرة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الرجال يقصدونها بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ليسألوها فى العلم فتفتيهم فيه من وراء حجاب لما اتصفت به من كمال الفضل وتمام الأدب

ورعها وخوفها من الله – عن عائشة رضى الله عنها قالت :جاء عمى من الرضاعة يستأذن علىّ فأبيت أن آذن له حتى استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء الرسول قلت ان عمى من الرضاعة استاذن علىّ فأبيت أن آذن له . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فليلج عليك عمك . فقلت : إنما أرضعتنى امرأة ولم يرضعنى الرجل . فقال انه عمك فليلج عليك

تعبدهـا - عن عروة أن عائشة رضى الله عنها كانت تسرد الصوم وعن القاسم : أنها كانت تصوم الدهر ، لا تفطر إلّا يوم أضحى أو يوم فطر وعنه قال : كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رضى الله عنها فأسلم عليها فغدوت يوماً فاذاهى قائمة تسبح وتقرأ : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ وتدعو وتبكى وترددها ، فقمت حتى مللت القيام فذهبت الى السوق لحاجتى ، ثم رجعت فاذا هى قائمة كما هى تصلى وتبكى وكانت تزور الكعبة فى كل عام ، ثم تعود الى المدينة ، فهذه الزيارات التى دامت الى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة أكسبتهـا عاطفة حب شديد واحترام فائق نحو شخصها المحبوب من أهل المدينة الذين كانوا يقدرون ذكاءها وحسن رأيها

حياؤهـا - عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى رضى الله عنه واضعة ثوبى وأقول : انما هو زوجى وأبى ، فلمـا دفن عمر رضى الله عنه والله ما دخلته إلّا مشدودة على ثيابى حياءً من عمر رضى الله عنه

عفتها وبراءتها مما نسب اليها - مما يؤسف له أنه حـدث حادث مؤلم للسيدة عائشة غيّر قلب النبى صلى الله عليه وسلم وحوّل بعض حبه

عنها فترة قصيرة من الزمن، وهذا الحادث هو حديث الإفك الوارد فى سورة النور من القرآن الكريم ،وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم استصحب زوجته السيدة عائشة فى الغزوات و بينما هو قافل إذ انفرط عقدها فرجعت لتلتمسه، فظن سائس راحلتها أنها فى هودجها فاحتمل الهودج على الراحلة وسار مع الركب فلما رجعت لم تجد أحدا فمكثت مكانها فمر بها (صفوان بن المعطل السلمى) فرآها فأركبها ناقته، فأوصلها الى الجيش فاتهمها جماعة من المنافقين فى عفتها . فلما تحدث الناس بهذا الأمر و بلغ السيدة عائشة بكت حتى أصبحت لا يهدأ لها بال ولا تكتحل عينها بنوم

فلما سمع أبوها أبو بكر بكاءها ونوحها طيب خاطرها وقال لها : صبراً يابنية عسى الله أن ينزل فى شأنك آية

و بينما أبوها عندها وهى تبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها، فلبثت تبكى معها، و بينما هم على تلك الحال إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس، ولم يجلس عندها من يوم هذا الحادث

وقد مكث شهراً لا يوحى اليه فى شأنها بشىء ، فتشهد الرسول عليه الصلاة والسلام حين جلس ثم قال :

أما بعد، يا عائشة فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه، فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه؛ فلما قضى رسول الله صلى

الله عليه وسلم مقالته استعصى دمعها لاستعظام ما بغتهابه من الكلام وقالت لأبيها وأمها :

إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث الناس به حتى استقر بأنفسكم وصدقتم به، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنني ، فوالله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ ﴾

وبعد أن أتمت مقالتها تحولت واضطجعت على فراشها وهى تعلم إنها لبريئة وأن الله مبرئها، وقد حدث ما كانت ترجوه ، إذ نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آيات في براءة السيدة عائشة رضى الله عنها ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وما بعدها من الآيات

وقد زال بعد نزول هذه الآيات ما كان بين الرسول وزوجه من الجفاء بسبب حادثة العقد ، وثبت له عفتها وبراءتها ، فعاش معها فى أمان وطمأنينة ، وأنس عظيم ، وراحة تامة

شجاعتها — كانت على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام ، فقد

حضرت واقعة الجمل بنفسها،وكانت تحض الرجال وتشجعهم على الحرب

واقعة الجمل – وهى أن عائشة رضى الله عنها خرجت من المدينة الى مكة وسيدنا عثمان رضى الله عنه محصور ، ثم رجعت من مكة تريد المدينة،فلقيها فى الطريق(عبيد بن أبى سلمة) أحد أولاد خالها فقالت له: ماوراءك ؟ قال : قتل عثمان . قالت : فما صنع الناس بعده ؟ قال : اجتمعوا وبايعوا عليًا . قالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردونى ، فانصرفت إلى مكة وهى تقول: قتل عثمان مظلومًا والله لأطلبن بدمه

فلما رجعت إلى مكة ذهبت توًا الى الحجر الأسود ، وجمعت الناس وخطبتهم خطبة بليغة مؤثرة أفهمتهم فيها قتل عثمان ظلمًا ، وحثتهم على طلب دمه ، فأثرت هذه الخطبة فى نفوس الكثيرين وتبعها عدد كبير من أهل البصرة حتى بلغ عدد جيشها ثلاثين ألف مقاتل من بينهم طلحة والزبير بن العوام

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه قام وخطب فى الناس وأعلمهم الحال وقال : إنها فتنة ، وسأمسك الأمر ما استمسك بيدى،وسار اليهم فى عشرة آلاف ، والتقى الجمعان بظاهر البَصرة فى مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوب وحروب وانتهت بهزيمة جيش عائشة وقتل طلحة وابن العوام رضى الله عنهما

وكانت السيدة عائشة على جمل فى هودج تراقب حركة القتال ، وقد ترامى جندها على الموت ، وسميت هذه الواقعة (بواقعة الجمل)

وكان خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال، وبقيت السيدة عائشة فى محفرها حتى المساء،وكان أخوها (محمد بن أبى بكر)من أصحاب على كرم الله وجهه ، وأمره أن يمضى الى أخته وينظرها هل هى سليمة أم لا ؟ ثم أدخلها ليلاً الى البَصرة فى دار (عبد الله بن خلف) وظلت هناك حتى أول شهر رجب بأمر الإمام على ، وأحسن على كرم الله وجهه وفادتها غاية الإحسان ، وجهزها بكل ماينبغى،وأذن لها بالرجوع واختار لهـا أربعين امرأة من نساء أهل البَصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطريق وسيَّرها صحبة أخيها محمد بن أبى بكر مكرمة، وقد شيَّعها ولدا الإمام على : الحسن والحسين رضى الله عنهما

فلما كان يوم رحيلها حضر الإمام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها :

يا بنى لايعتب بعض على بعض ، انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم الا مايكون بين المرأة وأحمائها، وأنه على معتبتى لمن الأخيار

وقال على كرم الله وجهه : والله ما كان بينى وبينها إلَّا ذاك ، وأنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة

ثم سارت وتبعها الامام أميالا ، وتوجهت إلى مكة ، وأقامت بها أيام الحج وانصرفت إلى المدينة

وفاتها — انطوت صفحة حياتها الخالدة فى العام الثامن والخمسين من الهجرة حيث نزل بها قضاء الله الذى لامرد له وكانت وصيتها عندما وافاها القدر المحتوم أن تدفن (بالبقيع)

توفيت عائشة رضى الله عنها إلى رحمة ربها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرم ، ودفنت فى تلك الليلة (بالبقيع) كما أوصت ومشى جميع أهل المدينة فى جنازتها وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه

أما الذين نزلوا قبرها فهم : عبد الله ، وعروة ، ولدا الزبير ، والقاسم وعبد الله، ولدا محمد بن أبى بكر ،وعبد الله بن عبد الرحمن

ماتت السيدة عائشة ، السيدة الفاضلة، رضى الله عنها عن خدمات جليلة، وحسنات شهيرة ، حببتها إلى الأمة الإسلامية فتركت من بعدها ذكرى خالدة ، وسمعة طيبة

فالسلام عليها يوم ماتت ، ويوم تبعث حيَّةً

وأرجو الله أن يوفق نساءنا المسلمات للعمل بسيرتها ، واتباع سنتها

٤ – زينب بنت جحش

زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين

زينب بنت جحش بن رئاب ، تكنى أم الحكيم ، وأمها (أميمة) بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قديمة الإسلام ، ومن المهاجرات مع الرسول ، وكانت امرأة جميلة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على (زيد بن حارثة) فقالت : يارسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش

قال : فانى قد رضيته لك ، فتزوجها ابن حارثة ولم يلبث معها قليلاً حتى طلقها لكبريائها وعظمتها

عن أنس رضى الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم (أمسك عليك زوجك واتق الله) فنزلت الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾

زواجها بالنبي – لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة اذهب واذكرها لى ، فلما قال ذلك عظمت فى نفسى ، فذهبت إليها ، وجعلت ظهرى إلى الباب ، وقلت :

يازينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . فقالت : ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربى عز وجل . فقامت الى مسجد لها فأنزل الله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ الآية

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير اذن وكان عمرها حين تزوجها ٣٥ سنة

وروى : أنه لما دخل بها سنة ٥ للهجرة قال لها : ما اسمك ؟ قالت : برَّة . فسماها رسول الله (زينب) وقال : لاتزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البرِّ منكم والفاجر

وروى: أنه لما تزوجها تكلم فى ذلك المنافقون فقالوا : حرَّم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه . فأنزل الله عز وجل

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ الآية سورة الأحزاب

وقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾

فمن ثم دُعى (زيد بن حارثة) وكان يدعى (زيد بن محمد) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا

فخرها على أزواج النبى — عن أنس رضى الله عنه قال : لما نزلت الآية . (فلما قضى زيد منها وَطرا زوجنا كها) كانت زينب تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكن آباؤكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات ؛ وأولم عليها بخبز ولحم

وعن أنس قال : ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة من نسائه أكثر وأفضل مما أولم على زينب

فقال له ثابت : ما أولم ؟ قال : أطعمهم خبزاً ولحماً

مناقبها — كانت زينب بنت جحش قصيرة جميلة ، صنَّاعة اليد ، تدبغ وتخْرِز، صوّامة قوامة، تشتغل وتتصدق من شغل يدها في سبيل الله . قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً» . قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً : قالت: وكان أطولنا يداً زينب؛لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق

وعنها رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه : «أولكن تتبعنى أطولكن يداً» . قالت عائشة رضى الله عنها : فكنا إذا اجتمعنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا فى الحائط نتناول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش رضى الله عنها،فكانت امرأة قصيرة، ولم تكن أطولنا، فعرفت أن النبى

صلى الله عليه وسلم أراد بطول اليد الصدقة ، وكانت امرأة صناعاً ، وكانت تعمل بيدها وتتصدق فى سبيل الله

وفاتها — توفيت سنة ٢٠ للهجرة فى خلافة عمر ، وفى هذا العام افتتحت مصر ، وقيل : توفيت سنة إحدى وعشرين وفيها فتحت الاسكندرية وماتت رضى الله عنها وعمرها ثلاث وخمسون سنة . ولما توفيت قالت عائشة : يرحم الله زينب بنت جحش لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف ، إن الله عز وجل زوجها بنبيه ، ونطق به القرآن ، وأن الرسول قال لنا ونحن حوله : «أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً» فبشرها بسرعة لحوقها به وهى زوجته فى الجنة ، وذلك لأنها أول من توفيت من نسائه بعده ، وقال لعمر بن الخطاب : إن زينب أوّاهة خاشعة متصدعة

٥ — السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ

هى أكبر أولاده، ولدت وعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة وأمها (خديجة بنت خويلد بن أسد) وكان أبوها يحبها وتزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى قبل النبوة . وكانت تحب زوجها، وأسلمت وهاجرت مع أبيها وأبىٰ أبو العاص أن يسلم، ففرق الإسلام بينهما ؛ إلّا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقدر أن يفرق بينهما بمكة لعدم قوة الإسلام بها وقتئذ ولم يفرق بينهما من أول البعثة ؛ لأن تحريم زواج المشرك للمسلمة إنما كان بعد الهجرة

ولما أُسر أبو العاص فى وقعة بدر وكان مع الكفار أرسلت زينب فى فدائه الربيع بمال دفعته اليه، من ذلك قلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا»

فقالوا : نعم

وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصافياً وكان قد أبىٰ أن يطلق زينب لما أمره المشركون أن يطلقها ، فشكر له صنيعه

ولما أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسر شرط عليه أن يرسل زينب الى المدينة، فعاد إلى مكة وأرسلها الى المدينة، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى

ولم تزل زينب بالمدينة، وأبو العاص بمكة ، على شركه، فلما كان قبيل الفتح خرج بتجارة الشام ومعه أموال من أموال قريش ومعه جماعة منهم، فلما عاد لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أميرهم (زيد بن حارثة) فأخذ المسلمون ما فى تلك العير من الأموال، وأسروا أناساً ، فهرب أبو العاص بن الربيع ، ثم أتى المدينة ليلاً فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته

فلما صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح صاحت زينب : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس وقال: هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا: نعم قال : والذى نفسى بيده ما علمت بذلك حتى سمعتم . وقال يجير على المسلمين أدناهم ، ثم دخل على ابنته فقال : أكرمى مثواه ، ولا يخلص اليك فانك لاتحلين له : قالت : انه قد جاء فى طلب ماله . فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك السرية وقال: ان هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً وهو مما أفاء الله عليكم به، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فان أبيتم فانتم أحق

فقالوا : بل نرده عليه ، فردوا عليه ماله أجمع ، فعاد إلى مكة ، وأدى إلى الناس أموالهم، ثم أسلم وحسن اسلامه، ثم قدم الى المدينة

ولما اسلم أبو العاص ردعليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته زينب بمهر جديد ، وولدت علياً وأمامة التى تزوجها على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أُمامة، وهى التى كان يحملها فى الصلاة على عاتقه، فاذا ركع وضعها، واذا رفع رأسه من السجود أعادها

وقد توفيت زينب بالمدينة فى السنة الثامنة للهجرة، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها ، وهو مهموم محزون، فلما خرج سرى عنه وقدتوفى بعدها زوجها

وقيل: انها لماماتت زينب قال النبى صلى الله عيه وسلم: أغسليها وتراً ، ثلاثاً أوخمساً واجعلى فى الخامس كافوراً أوشيئاً من الكافور

٦ — السيدة فاطمة الزهراء (رضى الله عنها)

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيدة النساء

نسبها — السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها من أشرف نساء قريش نسباً، وأطهرهن حسباً، وأنقاهن سيرةً، وأشدهن غيرةً على الإسلام

مولدها — ولدت فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم من أمنا السيدة خديجة الكبرى رضى الله عنها قبل ما تبنى الكعبة بخمس سنين، والنبى صلوات الله عليه ابن خمس وثلاثين سنة، أى قبل هجرته المباركة بسبعة عشر عاماً، وكانت أصغر بناته وأحبهن اليه

كانت سيدة النساء فاطمة مباركة ذات خَلق حسن وخُلق أحسن تربت تربية عاليه فى دار النبوة، فنشأت نشأةً صالحة، وأنبتها الله نباتا حسنًا (أصلها ثابت وفرعها فى السماء) فكانت خير النساء وسميت فاطمة؛ لأن الله فطمها وحفظها من النار

زواجها — تزوجت السيدة فاطمة الزهراء من الإمام على (ابن عم النبى) كرم الله وجهه فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة، وبنى بها فى ذى الحجة من السنة المذكورة

ولقد كانت سيدة النساء وقتئذ فى أزهى أوقات الحياة فى التاسعة عشرة من عمرها ، أما الإمام على فقد كان يبلغ الحادية والعشرين . كلاهما شخصيتان بارزتان ، يحيط بهما جلال الإيمان ونور الهدى ، متكافئان متعادلان من كل الوجوه ، مناسب أحدهما للآخر كل المناسبة ، كلاهما عالى الفكر ، رقيق الحسّ ، حميد الخُلق ، صبيح الوجه ، فكلاهما زوجان متصفان بالمعالى ، مشهوران بالمحامد ، فهما خيار من خيار بدأت حياتهما المشتركة التى امتزجت فيها الفضيلة بالكمال ، والجلال بالجمال ، على هذا الوجه من الصفاء والوفاء والإخلاص

حضر الإمام على ذات يوم من أيام السنة الثانية للهجرة الى دار النبوة بنفسه ، و بعد أن دخل الدار سلم على الرسول صلى الله عليه وسلم وسكت ، فسأله الرسول ماذا يطلب ؟ فرد عليه مجيباً بأنه حضر ليطلب كريمته السيدة فاطمة . فقال له الرسول : مرحباً وأهلاً ، ولم يزد على ذلك بل ظل ساكتاً بعدها، مما اضطر علياً إلى العودة حائراً مدهوشاً

لم يستطع الإمام على أن يميز وجه الحقيقة من رد الرسول، فسأل بعضاً من الأنصار، فبشروه وطيبوا خاطره ، وأفهموه بأن فى هذا الرد مايشعر بالقبول والإيجاب ، ففرح الإمام واغتبط بذلك ، و بعد قيام الإمام على بطلب الرسول صلوات الله عليه كريمته السيدة فاطمة وأخبرها

بهذا الأمر، وسألها رأيها فيـه ، فلم تجبه ؛ بل أطرقت ساكتة ، فعد الرسول سكوتها علامة الإيجاب والرضى[1]

فقرر اتمام عقد الزواج ، ثم أرسل يطلب علياً كرم الله وجهه وسأله هل عنده من شيء ؟ فأجابه : أنه لايملك سوى فرسه ودرعه ، فأمره ببيع الدرع لتجهيز السيدة فاطمة بثمنها

هرع عليّ الى السوق فباع الدرع إلى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهمًا ، وعاد بالثمن معقوداً فى طرف ثوبه ووضعه أمام الرسول وهو يقول : هاهو بدل الدرع يارسول الله

فقبض الرسول بعض الدراهم منها ، وناولهـا بلالاً ليشترى بعض الطيب والروائح ويسلم الباقى الى (أم سلمة) لتشترى الجهاز

وبعد أن أحضرت أم سلمة الجهاز دعا الرسول صلى الله عليه وسلم جمعًا غفيراً من الأنصار ثم خطبهم خطبة بليغة وهى :

الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع سلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزّهم بأحكامه ، وأعزّهم بدينه ؛وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسـلم ، ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقًا ، وأمراً مفترضاً ، وحكما عادلاً ، وخـيراً جامعًا ، وشج به الأرحام ، وألزمها الأنام . فقال عز وجل : «وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبًا وصهراً وكان

ربك قديراً » وأمر الله تعالى يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدرأجل ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله مايشاء ، ويثبت وعنده أم الكتاب ثم أن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على ، وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة ، والفريضة الواجبة ثم دعا لهما عقب ذلك بحسن المعاشرة ، وبالذرية الصالحة ، وعند ما تم عقد الزواج على هذا الوجه البسيط أحضر الرسول للحاضرين من الأنصار وعاء فيه بعض التمر وقدمه اليهم بقوله : تخاطفوا

هكذا تم زفاف سيدة النساء ، وابنة فخر الكائنات بلا ضجيج ولا ضوضاء ، ولكنه بالسرور الذى ملأ القلوب بالهناء والصفاء

وبعد أن تفرق المدعوون طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمة وأمرها بأن تذهب بكريمته الى دار على ، وبأن تخبرهما أنه آت اليهما عن قريب ، فنفذت أمره وسارت بسيدة النساء الى دار زوجها ، أما الرسول فقد صلى صلاة العشاء ، ويمم عقب الصلاة دار على وفى يده قربة من الجلد تستعمل لسقى الماء ، وعند وصوله دار صهره قرأ عليها سورتى المعوذتين ، وبعضاً من الأدعية ، وأمرهما بأن يشربا ويتوضآ من الإناء ، ثم أخذ قليلاً منه ونثره على رأسيهما ، وعندما أراد مفارقتهما وقد همَّ بالانصراف كانت فاطمة رضى الله عنها تبكى فخاطبها بما معناه

« أى بنتى قد تركتك وديعة عند رجل إيمانه أقوى من إيمان أى إنسان آخر، وعلمه أكثر من علم الجميع ، إنه أفضل قومنا أخلاقاً ، وأعلاهم نفساً »

على هذا الوجه تم عقد الشركة القلبية بين سيدة النساء فاطمة الزهراء والإمام على كرم الله وجهه

أحب الإمام علىّ زوجته سيدة النساء،وعاشا عيشةً راضيةً، ورزقت منه خمسة أولاد، ثلاثة ذكور : وهم الحسن والحسين ومُحسن، وبنتان : أم كلثوم وزينب ، وقد مات مُحسن صغيراً

مناقبها

كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها ذات عقل ودراية ، عالية النفس ، تجيد الشعر، وتعرف مسائل الفقهوالشريعة ، ولها إلمام بالتاريخ ولم يأخذها الغرور يوماً لعلو منزلتها فى الإسلام

وكانت سلسة القياد ، حلوة اللسان ، تحبمعونة الفقراء كزوجها على روى عنها أحاديث نبوية كثيرة ، ونظمت قصائد ذات أبيات عامرة ، وأظهرت دراية ومهارة فى كثير من المعضلات

كانت السيدة فاطمة تشابه أباها فى كلامها ، وتحاكيه صلى الله عليه وسلم فى مشيها،محاكاةً تامة تثير دهشة الناس

أما محبتها لوالدها فخر الكائنات ، فكانت محبة خارقة للعادة من أعماق القلب والروح

وكانت محبوبة من أهلها يحبها الجميع ، وقد تركت ذكريات حسنة فى قلب كل إنسان عرفها أثناء العشرة السنوات التى مضت من يوم زواجها حتى ساعة وفاتها

وكان الإمام على ينفذ لها كل طلب ويعمل بكل كلمة تقولها

وكان أولادها يطيعونها ويحترمونها فى كل حين

وكانت تحب أولادها وتعتنى بشأنهم ، وكانت فى صلاتها وعبادتها ومبراتها وخيراتها من أكثر السيدات أنسًا فى محفل ربات الخدور

وقد قضت حياتها السعيدة حتى السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية المباركة وهى تجبر القلوب الكسيرة ، وتعين المحتاجين ، وتغيث الملهوفين ، وقد ظلت هذه الحياة السعيدة على هذه الوتيرة حتى السنة المذكورة التى انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه، الى الرفيق الأعلى ، فتناثرت أوراق تلك السعادة ، وأظلم قلبها ، وهكذا الدهر إذا صفا يومًا ففى غد ينقلب

* * *

أقبلت ذات مرة تزور الرسول صلوات الله عليه وكان معه السيدة عائشة فقال: مرحبًا بابنتى، ثم أجلسها عن يمينه وأسرَّ لها حديثًا فبكت ،

ثم أسرَّ لها حديثاً آخر فضحكت ، فقالت السيدة عائشة : مارأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن . فسألتها عما قال ؟ فقـالت : ما كنت لأفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرَّه ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فأخبرتها أنه قال : إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة، و إنه عارضنى العام مرتين ، وما أراه إلَّا قد حضر أجلى ، وأنك أول أهل بيتى لحوقاً بى ، ونعم السلف أنا لك . فبكيت : فقال : ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ فضحكت لذلك . ولم تضحك فاطمة عليها السلام بعـد وفاة أبيها قط ، ولقد حزنت الزهراء حزناً شديداً لوفاته صلى الله عليه وسلم الى أن توفاها الله فلم تظهر عليها امارة من السرور طول تلك المـدة . ولمـا زارت قبر أبيها عليه الصلاة والسلام بعد وفاته بأيام أخذت بيدها قبضة من تراب القبر فجعلتها على عينها ووجهها وأخذت تبكى وتقول :

« ماذا على من شم تربة أحمد   ألّا يشم مدى الزمان غواليا »
« صُبت علىَّ مصائب لو أنهـا   صُبت على الأيام عُدنَ لياليا »

وقد رثته بهذه المرثية :

« اغـبر آفاق السماء وكورت   شمس النهار وأظلم العصران »
« والأرض من بعد النبى كئيبة   أسفاً عليـه كثيرة الأحزان »
« فليبكه شرق البلاد وغربها   ولتبكه مضر وكل يمـان »

« ياخاتم الرسل المبارك صنوه   صلى عليك منزل القرآن »

فلم يسمعها إنسان حتى بكى معها ، و بعد أن أفاضت دموع العين بما فى القلب من نيران الحزن عادت الى منزلها واجمة مطرقة حزينة

روى: أن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطت جارية لها صدقة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت لها: امضى الى السوق بها ، وقولى من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن قبلها فأتيني به ، فمضت الجارية الى السوق وقالت : من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رجل مغربى : أنا موضع صدقة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطته الصدقة

وقالت له : أجب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها :نعم

فلما بلغ الباب سألته من أنت ؟ فقال لها أنا رجل مغربى

فقالت له : من أى المغرب ؟ فقال من البربر فبكت فاطمة وقالت: قال لى والدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل نبى حوارى،وحوارى ذريتى البربر، سيقتل الحسن،والحسين،و يفر أولادهما الى المغرب،فلا يأو يهما إلّا البربر فياشؤم من فعل بهم ذلك ، وطوبىٰ لمن أكرمهم وأعزّهم »

* * *

وفاتها ـ توفيت عليها السلام ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر

رمضان سنة إحدى عشر للهجرة، وهى بنت ثمان وعشرين سنة، ودفنت بالبقيع ليلاً، وصلى عليها علىّ عليه السلام

وقيل : صلى عليها ونزل فى قبرها هو والفضل بن العباس ، وقيل : لبثت فاطمة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشهر ، وقال عروة ابن الزبير وعائشة : لبثت ستة أشهر، وهو الصحيح

* * *

وروى : أن علياً عليه السلام زوجها لما ماتت فاطمة وفرغ من جهازها ومن دفنها رجع الى البيت فاستوحش فيه وجزع عليها جزعاً شديداً ثم أخذ يقول :

« أرى علل الدنيا علىّ كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل »

« لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذى دون الفراق قليل »

« وإن افتقادى فاطماً بعد أحمد
دليل على أن لايدوم خليل »

٧ — السيدة زينب بنت الامام على

كرم الله وجهه

نسبها ـ السيدة زينب هى بنت الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمها سيدة نساء العالمين (فاطمة الزهراء) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

مولدها ـ ولدت رضى الله عنها فى شعبان فى السنة الخامسة للهجرة الموافقة لسنة ٦٢٦ م وعاشت مع جدها النبى صلى الله عليه وسلم خمس سنوات وهى شقيقة الحسن والحسين عليهما السلام

زواجها ـ تزوجت من ابن عمها (عبد الله بن جعفر الطيار) ذى الهجرتين، وذى الجناحين، وكنيته أبوعبد الله، وأبو المساكين الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشبهت خَلقى وخُلقى

وكان آية فى الحلم والجود والكرم، توفى سنة ٨٠ من الهجرة بالمدينة وكان أميرها إذ ذاك (أبان بن عثمان لعبدالملك بن مروان) فحضر غسله وكفنه، وما فارقه حتى دفنه بالبقيع، وإن دموعه لتسيل على خديه وهو يقول : كنت والله خيراً لاشرَّ فيك، وكنت والله شريفاً واصلا براً

أولادها ـ رزقت منه علياً وعوناً، ويدعى بالأكبر، وعباساً ومحمداً وأم كلثوم

مناقبها وأخبارها – كانت السيدة زينب رضى الله عنها امرأة عاقلة لبيبة فصيحة ، وكانت مع أخيها الحسين رضى الله عنه حين قتل بكربلا ، وقيل : أنها لما قُتل أخرجت رأسها من الخباء وأنشدت رافعة صوتها :

« ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم ؟ »
« بعترتى وبأهلى بعد فُرقتكم منهم أسارى ومنهم خضبوا بدم »
« ماكان هذا جزائى إذ نصحت لُكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى »

وقيل: أن هذه الأبيات لزينب ابنة عقيل بن أبى طالب كما جاء فى كتاب (ابن الأثير) وهو الصحيح

ولما دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين ، وجاءت نساءها يومئذ قياماً يندبن ويلطمن متهتكات الجيوب ، وسمعت على بن الحسين يقول : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ فأومأت زينب الى الناس أن اسكتوا ، فسكتت الأنفاس ، وهدأت الأجراس ، وقامت خطيبة فيهم وقالت : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

أما بعد ، يا أهل الكوفة ، أتبكون؟ فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة ، انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، ألا ساء ما تزرون ، أى والله فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل

أبداً ، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ ويلكم يأهل الكوفة ، ألا ساء ماسولت لكم أنفسكم ، أن سخط الله عليكم ، وفى العذاب أنتم خالدون ، أتدرون أى كبد فريتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، يأهل الكوفة لعذاب الآخرة أخزى،وأنتم لاتنصرون ، كلا إن ربى وربكم بالمرصاد

فما أتمت حديثها حتى صرخ الناس بالبكاء،وذهلوا وسقط فى أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء ، ثم آمر الطاغية (ابن زياد) قائد حزب الشيطان ، بتجهيز الأسارى وترحيلهم إلى الشام مقر أميره ، فجهزوا ولما بلغوا الشام أخرجت النساء وأدخلن دار (يزيد) وكانت معهن ابنة للإمام الحسين تدعى (فاطمة) ولما دخلت السيدة زينب دمشق خيَّرها (اليزيد) بين الإقامة بدمشق على الرحب والسعة، وبين التوجه الى حيث تشاء من البلاد، فاختارت الرجوع إلى المدينة المنورة، فجهزها ومن معها إلى المدينة ، ثم أن والى المدينة من قبل يزيد وهو (عمرو بن سعيد الأشدق) اشتكى من إقامة السيدة زينب بالمدينة ، فكتب بذلك إلى (يزيد) وأعلمه بأن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر

والقلوب لما حصل لآل البيت ، وأنها فصيحة عاقلة لبيبة وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثار الحسين

فلما وصل الكتاب إلى (يزيد) وعلم بذلك أمر بتفريقهم فى الأقطار والأمصار ، فاختارت السيدة زينب الإقامة بمصر طلباً لراحتها ، واختار بعض أهل البيت بلاد الشام

قدومها مصر ووفاتها بها

فعند ذلك جهزهم (ابن الأشدق) فخرجت السيدة زينب هى ومن معها من أهل البيت ، وفيهم سكينة بنت الحسين وأختها فاطمة ، فلما اتصل خبر ذلك الى والى مصر إذ ذاك وهو (مسلمة بن مخلد الأنصارى) توجه هو وجماعة من أصحابه ، وفى صحبتهم جملة من أعيان مصر ووجهائها وعلمائها إلى لقائها ، فتلقوها فى قرية بين طريق مصر والشام شرقى بلبيس (عرفت أخيراً بقرية العباسة نسبة للعباسة بنت أحمد بن طولون) ولم يبق بالمدينة من جماعتهم إلّا زين العابدين

ووافق دخول السيدة إلى مصر (أول شعبان سنة ٦١ من الهجرة) وكان قد مضى على الموقعة نحو ستة أشهر وأياماً ، فأنزلها (مسلمة بن مخلد) هى ومن معها فى داره (بالحمراء القصوى) ترويحاً للنفس إذ كانت تشكو

المرض ، فأقامت بها ١١ شهراً ونحو ١٥ يوماً من شعبان سنة ٦١ الى رجب سنة ٦٢ هجرية

وفاتها — ولما ثقل عليها المرض توفيت رضى الله عنها يوم الأحد ليلة الاثنين لأربعة عشر يوماً مضت من شهر رجب من السنة المذكورة . وبعد تجهيزها وشهود جنازتها دفنت بمحل سكناها على العادة فى ذلك . أسكنها الله فسيح جناته (فجثمانها الشريف بمصر كما أثبته العبيدلى النسابة أمير المدينة فى رسالته)[1] فى المكان الموجودة فيه الآن

ثم بعد وفاتها رجع من كان معها من أقاربها الى المدينة، وفيهم السيدة سكينة وفاطمة ، ثم بعد مرور عام على وفاتها، وفى نفس اليوم الذى توفيت فيه اجتمع أهل مصر قاطبة وفيهم الفقهاء والقراء وغير ذلك ، وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ماجرت به العادة ، ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا الموسم الى وقتنا هذا من يوم وفاتها للآن . وهذا الموسم هو المعبر عنه (بالمولد الزينبى) الذى يبتدىء من أول رجب من كل سنة وينتهى ليلة النصف منه وهى ليلة الختام

(١) انظر كتاب السيدة زينب للاستاذ حسن افندى قاسم المؤرخ العظيم المطبوع سنة ١٣٥١ بدار الطباعة المنيرية بالأزهر

السيدة زينب المثل الأعلى للحق والعدل

للسيدة زينب رضى الله عنها مواقف مشهورة بين أمراء الظلم تدل على ميلها وحبها للحق والعدل، بينما كانت مواقف الظلمة أمثولة تدل على العسف والجور

فكانت تجاوب القوم بكل ثبات وشجاعة وإقدام، الأمر الذى لم يقم به أحد من البشر خصوصاً من النساء

وذلك أنه لما أحيط بها (بعد مقتل أخيها الحسين رضى الله عنهما) وهى فى هذا الموقف الرهيب ناداها منادى الحق، فهتفت باسمه، وأجابت نداءه، وقالت تخاطب (يزيد) :

صدق الله يايزيد، «ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون» أظننت يايزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله وأن بك عليه كرامة ؟

وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك، والأمور متسقة عليك

إن الله إن أمهلك فهو قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك بناتك وامائك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ؟ قد هتكت ستورهن ، وأصحلت أصواتهن ، مكتئبات تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد الى بلد ، لايراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن ، وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر الينا بالشنق والشنان والإحن والأضغان ؟ الى أن قالت :

أيزيد ،والله مافريت إلَّا فى جلدك ، ولاحززت إلَّا فى لحمك ، سترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحَكَمُ ربنا ، والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك (فبئس للظالمين بدلا) هنالك تعلم (أينا شر مكانًا وأضعف جنداً) مع إنى والله أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك ؛ غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى،وقد قتل أخى الحسين . ألا ان حزب الشيطان

يقربنا إلى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تنطف (تقطر) من دمائنا ، وهـذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزوا كى يعتامها عسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا فى هذه الحياة مغنماً ، لتجدننا عليك مغرماً ، حين لاتجد إلا ماقدمت يداك تستصرخ يابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان . وقد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتقيت غير الله ، وما شكوت إلَّا لله فـكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرحض (لايغسل) عنك عار ما أتيت الينا أبداً

فما أبلغ هـذا الكلام ! وما أحسن تأثيره فى نفوس الـكرام ! وما أشد وقعه فى قلوب الـكفرة اللئام الذين قتلوا الحسين رضى الله عنه ظلماً وعدواناً جزاهم الله بما يستحقون ، وجزى السيدة زينب خـير الجزاء وأسكنها دار الخلد والبقاء

٨ — السيدة أم كلثوم رضى الله عنها

نسبها — هى ابنة الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأمها السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

مولدها — ولدت قبل وفاة النبي

زواجها بعمر — خطبها عمر بن الخطاب إلى أبيها على ، فقال : إنها صغيرة . فقال عمر : زوجنيها يا أبا الحسن ، فانى أرصد من كرامتها مالم يرصده أحد . فقال له على : أنا أبعثها اليك فان رضيتها فقد زوجتكها ؛ فبعثها اليه ببرد وقال لها : قولى له هذا البرد الذى قلت لك عليه

فقالت ذلك لعمر ، فقال لها : قولى له : قد رضيت ، رضى الله عنك ، ووضع يده عليها ، فقالت له : أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم جاءت أباها فأخبرته ، وقالت له : بعثتنى الى شيخ سوء . قال : يابنية إنه زوجك

فجاء عمر ، فجلس الى المهاجرين فى الروضة (وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون) فقال : رفئونى (هنئونى بالرفاء) فقالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزوجت أم كلثوم بنت على ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة

إلا سببى ونسبى وصهرى » وكان لى به عليه الصلاة والسلام النسب والسبب فأردت أن أجمع اليه الصهر فرفؤوه، فتزوجها على مهر أربعين ألفاً ، فولدت له زيداً ورقية

زواجها بعون بن جعفر

قيل : أنه لما قتل عنها عمر تزوجها (عون بن جعفر) وذلك أنه دخل عليها الحسن والحسين أخواها فقالا لها : انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين ، و بنت سيدتهن ، وانك والله ان أممكنت علياً من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، ولئن أردت أن تصيبى بنفسك مالاً عظيما لاتصيبينه ، فوالله مالبثا حتى طلع على يتكىء على عصا فجلس وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر منزلتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

قد عرفتم منزلتكم عندى يابنى فاطمة ، وآثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابتكم منه ، قالوا : صدقت رحمك الله، فجزاك الله عنا خيراً

فقال : أى بنية إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك وأنا أحب أن تجعليه بيدى

فقالت : أى أبت إنى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب

أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيـا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى. فقال لها : لا، يابنية ، ماهذا من رأيك ، وما هو إلَّا رأى هذين، ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلى ؟ فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبانا فوالله ماعلى هجرتك من صبر، فقالا لهـا : اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت،قال: فانى قد زوجتك من (عون بن جعفر) وأنه لغلام، وبعث لها بأربعة آلاف درهم ، وأدخلها عليه وبقيت معه حتى مات عنها قتيلاً فى وقعة كربلاء، وهى مع أخيها الحسين ، ورجعت مع السبايا من العراق إلى الشام ثم إلى المدينة

وفاتها

وتوفيت فى المدينة وابنها زيد فى وقت واحد ، وكان زيد قد أصيب فى حرب كانت بين بنى عدى خرج ليصلح بينهم فضربه رجل منهم فى الظلمة فشجه وصرعه ، فعاش أياماً ثم مات هو وأمه (أم كلثوم) وصلى عليهما عبد الله بن عمر.

٩ — السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين

نسبها — هى السيدة فاطمة النبوية رضوان الله عليها ، التى سطعت فى الكون أنوارها ، وذاعت كراماتها ، وعمت بركاتها ، ولا عجب فهى فرع من شجرة بيت النبوة المحمدية ، فهى بنت الحسين رضى الله عنه ابن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأمها (أم اسحٰق التيمية) بنت طلحة بن عبيد الله

زواجها — ورد فى الأغانى : أن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم جاء خاطباً من عمه الحسين ، فقال له : يا ابن أخى ، قد كنت أنتظر هذا منك انطلق معى ، فذهب معه حتى أدخله منزله فخيره فى إحدى ابنتيه (فاطمة وسكينة) فاختار فاطمة فزوجه إياها ، وكانت رضوان الله عليها تشبه الحور العين لفرط جمالها

وورد فى رواية أخرى : أن الحسين لما خير ابن أخيه الحسن فى إحدى ابنتيه فاطمة وسكينة عند ماجاءه خاطباً خجل الحسن حياءً من عمه، فقال له الحسين : قد اخترت لك فاطمة بنتى فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها ، ثم تزوجت من بعد وفاة زوجها الحسن عبد الله بن عمرو

أولادها - ولدت من ابن عمها الحسن (عبد الله) ويلقب بالمحض وسمى بالمحض لمكانه من الحسنين ، وكان يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شيخ بنى هاشم . وقد سُئل مرة : لِمَ صرتم أفضل الناس ؟ فقال : لأن الناس يتمنون أن يكونوا منا ولا نتمنى أن نكون من أحد ، وكان متصفاً بالشجاعة والورع ، ومن كلامه :

« بيض حرائر ماهممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام »

« يحسبن من لين الكلام زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام »

وولدت أيضاً « المثنى » سيدنا ابراهيم القمر ،وسيدنا الحسن المثلث وكل منهم له عقب

وولدت أيضاً لعبد الله بن عمرو محمداً والقاسم رضوان الله عليهم أجمعين

ولما توفى زوجها الحسن المثنى حزنت عليه حزناً شديداً وضربت على قبره فسطاطاً ، فلما كان رأس السنة قالت لمواليها : إذا أظلم الليل فقوضوا هذا الفسطاط ، فلما أظلم الليل وقوضوه سمعت قائلا يقول : هل وجدوا مافقدوا ؟ فأجابه آخر: بل يئسوا فانقلبوا

عبادتها - كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها صوّامة قوّامة ، زاهدة فى الحياة الدنيا ، طارحة وراء ظهرها زخرف الحياة وزينتها

ومن كلامها رضى الله عنها : « والله ما نال أهل السفه بسفههم شيئاً

إلّا وقد ناله أهل المروءات ، فاستتروا بجميل ستر الله » وظلت عاكفة على عبادة ربهـا إلى أن توفيت رضوان الله عليها سنة عشر ومائة كما جاء فى كتب التاريخ

كرمها — كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها كريمة الأخلاق ، طاهرة الأعراق ، ومما يروى عن كرمها : أن اليزيد لمـا جهز آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعـد قتل أبيها الحسين رضى الله تعالى عنه أرسل معهم رجلاً أميناً من أهل الشام فى خيل سيرها معهم إلى أن وصلوا المدينـة . فقالت فاطمة بنت الحسين لأختها السيدة سكينة : قد أحسن هذا الرجل الينا فهل لك أن تصليه بشىء ؟ فقالت السيدة سكينة رضى الله عنها ، والله مامعنا مانصله به إلّا ما كان من هذا الحلى . فقالت لهـا السيدة فاطمة : إفعلى . فأتت له بسوارين ، ودملجين ، و بعثتا بهما اليه فردهما ، وأبى أخذهما وقال : لو كان ماصنعته رغبة فى الدنيا لكان فى هذا مقنع (كفاية) ؛ ولـكنى والله مافعلته إلّا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

أم اليتامى — وقد اشتهرت السيدة فاطمة رضى الله عنها عند الخاص والعام (بأم اليتامى) وهـذا لحنانها وعطفها . وقد روى فى ذلك أنها تكفلت بتربية سبع بنات يتامى من أنصار الحسين قتل آباؤهن فى واقعة كربلاء فعطفت عليهن وآوتهن ، وعند ما تشرفت أراضى مصر

بنزول آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فيها أتت بهن معها ولم تتركهن ولم تفرط فيهن ، وعندما انتقلوا إلى الدار الآخرة دفنوا بجوار مسجدها مسجدها - أنشأ مسجد السيدة فاطمة النبوية الكائن بالدرب الأحمر بعطفة النبوية المرحوم (عباس باشا الأول) وجعل فيه منبراً وستة أعمدة من الرخام ، ودكة للمقرىء ، وعمل ميضأة (حنفيات) من الرخام ومنارة و بابين أحدهما إلى (الحنفيات) والآخر إلى الضريح الشريف ، ولا يزال قائم الشعائر للآن

وكانت السيدة فاطمة رضى الله عنها فصيحة المنطق ، كريمة المعشر ، أديبة تنثر الدرر ، وتنطق بالحكم ، فمن قولها تنعى أباها الحسين رضى الله عنه :

« نَعق الغراب فقلت مَن تنعاه وَيْحك ياغراب »

« قال: الإمام، فقلت مَن قال : الموفق للصواب »

« قلت : الحسين ، فقال لى بمقال محزون أجاب »

« إن الحسين بكَرْبلا بين الأسنة والحراب »

« أبكى الحسين بعبرة ترضى الإله مع الثواب »

« ثم استقلَّ به الجنا حُ فلم يُطق رَدَّ الجواب »

« فبكيت مما حلَّ بى بعد الرَّضِىِّ المستجاب »

١٠ – السيدة سكينة رضي الله عنها

نسبها – السيدة سكينة هى بنت سيدنا الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وأمها (الرباب) بنت امرىء القيس بن عدى بن أوس الكلبي الذى كان نصرانيًا ، وجاء إلى عمر بن الخطاب فدعا له برمح وعقد له على من أسلم بالشام من قضاعة ، فتولى قبل أن يصلى صلاة ، وما أمسى حتى خطب له الحسين بنته الرباب فزوجه إياها فأولدها عبد الله وسكينة

وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن ، وخطبت بعد قتل الحسين رضى الله عنه فقالت : ما كنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما قتل الحسين رضى الله عنه رثته بأبيات سبق ذكرها فى سيرة الحسين فى الجزء الرابع من هذا الكتاب

مناقبها – وكانت السيدة سكينة سيدة نساء عصرها ، ومن أجمل النساء وأظرفهن ، وأحسنهن أخلاقًا ، وأعلاهن مقامًا ، وأوفرهن ذكاءً ، وعقلاً وأدبًا ، فأحرزت قصب السبق فى مضمار الأدب ، والتف حولها الشعراء والأدباء ، وكانت عفيفة ، تجالس العظماء من قريش ، وتجمع اليها الشعراء ، وكانت من أحسن الناس شعراً ، وكانت تصفف جمتها تصفيفًا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك ، وكانت الجمة تسمى (السكينية)

وهى من الحذق على جانب عظيم ، فمما يؤثر عنها : أنها حضرت مأتما فيه بنت عثمان بن عفان، فقالت بنت عثمان : أنا بنت الشهيد ، فسكتت سكينة حتى إذا أذن المؤذن وقال : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقالت لها سكينة : هذا أبى أم أبوك ؟

فقالت بنت عثمان : لا أفخر عليكم أبداً

وكان لها تأثير شديد فى جميع أهل عصرها الذين كانوا يحذون حذوها فى جميع ماتصنعه ، حتى أنها كانت تخترع الأزياء فهى واضعة الطرة السكينية المنسوبة اليها المعروفة باسمها بين النساء

وشهرتها لم تكن قاصرة على الأزياء ؛ بل انها اكتسبت الشهرة بما كانت عليه من الأدب العالى ، والمعارف الواسعة ، وحسن المحاضرة ، حتى أصبح منزلها كعبة لكل قاصد من الفقهاء والشعراء والعلماء ، ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم

وكانت تستقبل الزائرين الذين كانوا يفدون على منزلها من جميع الأنحاء لمحاضرتها أو التماس صِلاتها ، أو طلب مساعدتها

وكانت تزين المجلس بحسن أدبها ، ووفرة ذكائها ، والأسئلة العديدة التى كانت تطرحها على الأدباء والشعراء الذين كانوا يحسبون لها حساباً كبيراً ؛ لأنها كانت نقادة لاتخشى فى الحق لومة لائم

أزواجها - تزوجت عبد الله بن الحسن السبط بن على كرم الله وجهه فقتل عنها « بالطف » قبل أن يدخل بها

ثم تزوجها مصعب بن الزبير رضى الله عنهما وأمهرها بألف ألف درهم، وحملها اليه على بن الحسين رضى الله عنهما، فأعطاه أربعين ألف دينار، وولدت له الرباب وكانت تلبسها اللؤلؤ وتقول: ما البستها إياه إلَّا لتفضحه

ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام فولدت له (قريبا)

ثم تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول بها

ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ففعل

وفاتها - توفيت السيدة سكينة رضى الله عنها بمكة يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائة . وصلى عليها شيبة ابن نصّاح المقرى

وقيل : سنة ١١٧ بالمدينة وهو الأرجح . وقيل : بمصر، وأنها مدفونة (بالمراغة) بقرب السيدة نفيسة رضى الله عنها كما جاء فى طبقات الشعرانى والمناوى والله أعلم

١١ – السيدة رقيَّة رضى الله عنها

نسبها

هى بنت الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأمها أم حبيب الصهباء التغلبية ، أم ولد ، كانت من سبى الذرية الذين أغار عليهم سيدنا خالد ابن الوليد (بعين النمر) فاشتراها سيدنا على رضى الله عنه من سيدنا خالد واستحظى بها فأولدها عمراً ورقيَّة المومى اليها

وهى مدفونة بمشهدها الموجود بتكيتها المعروفة (بتكية السيدة رقيَّة) بمصر ، وهى بالجامع المعروف (بجامع شجرة الدر) وهذا الجامع على يسار الطالب للسيدة نفيسة ، والمكان الذى فيه السيدة رقية عن يمينه ومكتوب على الحجر الذى ببابه هذا البيت :

« بقعة شرفت بآل النبى وبينت الرضا على رقيه »

ويعمل لها مقرأة وحضرة كل أسبوع ومولد كل سنة ، وشعائر هذه التكية مقامة من أوقاف السيدة رقية إلى الآن .

١٢ – السيدة عائشة النبوية رضى الله عنها

بنت جعفر الصادق

نسبها – هى ابنة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فأخوها موسى الكاظم وأمها حُمَّيدة

مناقبها ـ كانت رضى الله عنها من العابدات ، المجاهدات ، وكانت تقول : وعزتك وجلالك ، لئن أدخلتنى النار لآخذن توحيدى وأطوف به على أهل النار وأقول لهم : وحّدته فعذبنى

وفاتها ـ توفيت رضى الله عنها سنة ١٤٥ خمس وأربعين ومائة ودفنت فى المسجد المعروف باسمها الآن بناحيـة (قراميدان) بمصر بباب قرافة مصر

وقبرها يزار ، وأهل مصر يعتقدون فيهـا ويتبركون بزيارتها ، ومسجدها مقام الشعائر الى الآن

١٣ — السيدة نفيسة رضي الله عنها

بنت سيدى حسن الأنور

نسبها ـ هى ابنة سيدى حسن الأنور ، بن السيد زيد الأبلج ، ابن الحسن السبط ، بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وأمها (أم ولد)

مولدها ـ وكان مولدها بمكة المشرفة فى يوم الأربعاء الحادى عشر من ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة ، ونشأت بالمدينة لولاية والدها عاملا عليها من قبل المنصور

زواجها ـ لما بلغت رضى الله عنها من العمر خمس عشرة سنة رغب الناس فى خطبتها لدينها وصلاحها ، وكان والدها يأبى تزويجها وجاء السيد اسحٰق المؤتمن بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن السيد أبى عبد الله الحسين السبط ابن الإمام على وابن السيدة الزهراء البتول ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وخطبها من أبيها فلم يرد عليه جوابا ، فقام من عنده ودخل

الحجرة النبوية وقال بعد السلام : يارسول الله إِنى خطبت نفيسة بنت الحسن منه فلم يرد على جوابًا ، وإِنى لم أخطبها إِلَّا لخـيرها ودينها وعبادتها ، ثم خرج من الحجرة فرأى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام يقول له : ياحسن زوج نفيسة لاسحٰق المؤتمن فعقد له عليها يوم الجمعة الخامس من رجب سنة إحدى وستين ومائة هجرية وكان عمرها خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وأربعة وعشرين يومًا

أولادها – ورزقت منه القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا

مناقبها – وكانت السيدة نفيسة من الصلاح والزهد على جانب عظيم ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وكانت لاتفارق حرم النبى صلى الله عليه وسلم ، وحجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية ، وكانت تبكى بكاءً كثيراً ، وتتعلق بأستار الـكعبة وتقول :

إِلٰهى ، وسيدى ، ومولاى ، متعنى ، وفرحنى برضاك عنى ، فلا سبب لى أتسبب به يحجبك عنى

وكانت لا تأكل إلا فى كل ثلاث ليال أكلة واحدة

وقالت زينب بنت يحيى المتوج بالأنوار وهو أخو السيدة نفيسة : خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ، ولا أفطرت بنهار فقلت لها :

ألا ترفقين بنفسك ؟ فقالت : كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبات

لا يقطعهن إلّا الفائزون

وكانت تحفظ القرآن وتفسيره ، وكانت، تقرأ القرآن وتبكى وتقول : إلٰهى وسيدى، يسرلى زيارة خليلك ابراهيم عليـه السلام ، فحجت هى وزوجها اسحٰق المؤتمن بن جعفر الصادق، ثم زارت قبر خليل الرحمٰن عليه السلام ببيت المقدس

قدومها لمصر ـ ثم قدمت الى مصر مع زوجها ، وكان ذلك سـنة ثلاث وتسعين ومائة فى شهر رمضان ، وكان لقدومها أمر عظيم فتلقاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش ونزلت أولا عند كبير التجار بمصر ـ وهو جمال الدين عبيدالله بن الجصاص ـ وكان من أصحاب البرّ والمعروف ، فأقامت عنده شهوراً يأتى اليها الناس من سائر الآفاق للتبرك ، ثم حوّلت إلى مكانها المدفونة فيـه وهبه لها أمير مصر (ابن الحكم)

وقد أقبل على زيارتها فى الحياة و بعد الممات ، خلق كثير من العلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم ، وروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه لمـا دخل مصر حضر اليها وزارها وسمع عليها الحـديث من وراء حجاب ، ولذا كان يقال لها (نفيسة العلم) وكان فى صحبته عبد الله ابن عبد الحكم وقال لها : (إدعى لنا) أسألك الدعاء

وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم وهو باق الى الآن

وقيل: انه لما توفى الإمام الشافعى رضى الله عنه أدخلت جنازته فى دارها وصلت عليه ، وكانت فى موضع مشهدها الحالى ، ولم تزل به الى أن توفيت

وقيل: ان الحنفى رضى الله عنه كان يقول عند زيارتها : السلام والتحية والإكرام ، من العلى الرحمٰن على نفيسة الطاهرة المطهرة، سلالة البررة ، وابنة علم العشرة، الإمام حيدرة ، السلام عليك يا ابنة الحسن المسموم ، أخى الإمام الحسين سيّد الشهداء المظلوم ، السلام عليك يا ابنة فاطمة الزهراء، وسلالة خديجة الكبرى ، رضى الله تبارك وتعالى عنك ، وعن جدك وأبيك، وحشرنا فى زمرة والديك وزائريك ، الخ .

وفاتها

توفيت رضى الله عنها بعد موت الإمام الشافعى بأربع سنين فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين للهجرة، ودفنت فى منزلها المعروف بخط درب السباع بمصر

ويقال : انها حفرت قبرها بيدها وقرأت فيه مائة وسبعين ختمة

وقيل : انها لما احتضرت خرجت من الدنيا وقد انتهت فى حزبها الى قوله تعالى :

﴿قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

ففاضت روحها مع قوله تعالى : الرحمة

ولما ماتت عزم زوجها على حملها الى المدينة ليدفنها هناك فسأله المصريون بقاءها عندهم فأبقاها ، ودفنت فى الموضع المعروف بها الآن بين القاهرة ومصر القديمة ، رحمها الله رحمة واسعة وألهمنا رشدها وتقواها

وقد رثاها أحد الفضلاء بالقصيدة الآتية التي جمعت تاريخ حياتها :

« يامَن له فى الكون من حاجة   عليك بالسيدة الطاهره »
« نفيسة والمصطفى جدّها   أسرارها بين الورى ظاهره »
« فى الشرق والغرب لها شهرة   أنوارها ساطعة باهره »
« كم من كرامات لها قد بدت   وكم مقامات لها فاخره »
« ياحبذا سيدة شرفت   بها أراضى مصر والقاهره »
« بنفسها قد حفرت قبرها   حال حياة يالها حافره »
« تتلو كتاب الله فى لحدها   وهى لمن قد زارها ناظره »
« حجت ثلاثين على رجلها   صائمة عن أكلها قاصره »
« كانت تصلى وتقوم الدجى   دومًا على أقدامها ساهره »

« عابدة زاهدة جامعه للخير فى الدنيا وفى الآخره »

« فى كل قطر قد سما ذكرها عالمة فائقة ماهره »

« والناس قد عاشوا بها فى صفا عيش بأيام لها زاهره »

« والشافعى قد كان يأتى لها سعيًا إلى دار بها عامره »

« يرجو بأن تدعو له دعوة فيالها من دعوة وافره »

« صلت عليه بعد موت وقد أوصى بذا فهى له شاكره »

« سبحان من أعلى لها قدرها لأنها بين الورى نادره »

سير بعض النساء الشهيرات

١ — أروى ابنة الحرث بن عبد المطلب بن هاشم

كانت فريدة زمانها، وبليغة عصرها وأوانها؛ إذا خطبت أعجزت، وإن تكلمت أوجزت، ولا غرو فانها ابنة البلاغة، ومعدن الفصاحة والحصافة

ومما يؤثر عنها قيل: انها وفدت على معاوية بن أبى سفيان لما ولى الخلافة وكانت عجوزاً كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا خالة، فكيف كنت بعدنا؟

فقالت: يا ابن أخى، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقة فى الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتعس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق الى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هى العليا، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون، وكان على بن أبى طالب

رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة ، وغايتكم النار

فقال لها عَمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك ، إذ لاتجوز شهادتك وحدك

فقالت له : وأنت يا ابن الباغية تتكلم

فقال مروان : كفى أيتها العجوز واقصرى لما جئت له

فقالت له : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم

فقال معاوية : عفا الله عما سلف ياخالة ، هات حاجتك

فقالت : مالى اليك حاجة ، وخرجت عنه

و بعد خروجها التفت معاوية الى أصحابه وقال لهم : والله لئن كلمها كل من فى مجلسى لأجابت كل واحد منهم بجواب خلاف الآخر بدون توقف ، وهكذا نساء بنى هاشم أصعب فى الكلام من رجال غيرهن ، وأمر لها بجائزة تليق بمقامها ، و بقيت مكرمة بين قومها الى أن توفيت بالمدينة بخلافة معاوية

٢ — أسماء ابنة أبى بكر الصديق

هى أسماء ابنة أبى بكر الصديق ، وأمها قتيلة بنت عبد العزى ، وهى أخت عائشة لأبيها، وتسمى ذات النطاقين، لأنها صنعت للنبى صلى الله عليه وسلم طعاماً لما هاجر فلم تجد ماتشده به فشقت نطاقها وشدت به الطعام، فدعيت ذات النطاقين

تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عبد الله وعدة أبنـاء ، وكان عبد الله أول مولود ولد فى الإسلام بعد الهجرة

ثم طلقها الزبير ، فكانت مع عبد الله ابنها بمكة المشرفة حتى قتل ابنها فبلغت من العمر مائة سـنة حتى عميت وماتت بمكة سنة ٧٣ هجرية — ٦٩٢ ميلادية

ولها شعر قليل فى رثاء زوجها وابنها ، ومن كلامها لابنها عبد الله حين قاتل الحجاج إذ دخل عليها وقال لها : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إِلَّا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

فقالت : أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق واليه تعود فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمـكن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنمـا أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلـكت نفسك ومن معك ، وإن قلت : كنت على حق، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، لمَ خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى

قالت: يابنى ، إن الشاة المذبوحة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك، واستعن بالله

فقبل رأسها وقال : هذا رأيي ، والذى خرجت به رائياً الى يومى هذا، ماركنت الى الدنيا، ولاأحببت الحياة فيها ، وما دعانى الى الخروج إلّا الغضب لله ، وأن تستحل حرماته ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة ، فانظرى يا أماه فانى مقتول فى يومى هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمى الأمر الى الله ، فان ابنك لم يعهد بايثار منكر ، ولا عمد بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ؛ بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى ، اللّهم لا أقول هـذا تزكية لنفسى ، ولكنى أقوله تعزية لأمى حتى تسلو عنى

فقالت أمه : إنى لأرجو أن يكون عزائى فيـك جميلًا ان تقدمتنى احتسبتك ، وإن ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى أنظر إلامَ يصير أمرك ؟

فقال : جَزاك الله خيراً ، فلا تدعى الدعاء

قالت : لاأدعه لك أبداً ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق

ثم قالت : اللّهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللّهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين

فتناول يدها ليقبلها ، فقالت : هذا وداع فلا تبعد

فقال لها : جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا

قالت : امض على بصيرتك ، وادن منى حتى أودعك

فدنا منها فعانقته ، وقبلته ، فوقعت يدها على الدرع

فقالت : ماهذا صنيع من يريد ماتريد ؟

فقال : مالبسته إلّا لأشد متنك

قالت : انه لايشد متنى، فنزعها ، ثم درج لمته ، وشد أسفل قميصه وجبته تحت أثناء السراويل وأدخل أسفلها تحت المنطقة وأمه تقول له : البس ثيابك مشمرة ، فخرج وهو يقول مرتجزاً :

« إنى اذا أعرف يومى أصبر   وإنمـا يعرف يومه الحر »

« إذ بعضهم يعرف ثم ينكر »

فسمعته ، فقالت : تصبر إن شاء الله أبوك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية ابنة عبد المطلب ، ثم حمل على القوم ، وقاتل حتى قتل وصلب ، وطلبته أمه من الحجاج فأبى عليها اعطاءه ، فكتب لعبد الملك فسمح لها بذلك فغسلته ودفنته وبقيت بعده قليلاً وماتت بعد ما أضرت وذلك فى سنة ٧٣ هجرية

٣ — أسماء ابنة يزيد الأنصارية

هى رسول النساء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، روى عنها مسلم ابن عبيد :

أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : بأبى وأمى يارسول الله أنا وافدة النساء اليك ، إن الله عزَّ وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وموضع شهواتكم ، وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عزَّ وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً ، أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفما نشاركم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه ؟

فقالوا : يارسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدى الى مثل هذا

فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم اليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء ، أن حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ، فانصرفت وهى تهلل حتى

وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ماقاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرحن وآمن جميعهن

وسميت أسماء : رسول نساء العرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم

٤ — آسية امرأة فرعون

آسية بنت مزاحم ، كانت من خيار النساء المعدودات ، تزوجت بفرعون موسى ملك مصر ، ولم تلد منه مدة حياتها معه ، وكان يحبها حباً جماً لكمالها ودماثة أخلاقها ، فكم دفعت بلاء ، ودرأت مصائب ، وبدلت العسر يسراً ، حتى كانت رحمة للعباد فى زمن فرعون الفراعنة وداهية الدواهى

فمن ذلك حادث سيدنا موسى عليه السلام ، فقد جاء فى الأنباء أنه بينما كانت آسية جالسة فى حديقتها الغناء ، وروضتها الفيحاء ، تجرى من تحتها الأنهار ، إذا بتابوت قد أقبل عائماً على الماء ، يجرى الهوينى حتى صار منها قاب قوسين أو أدنى ، فأمرت جواريها باخراجه لاستطلاع أمره، والوقوف على خبره

فلما فتح إذا بداخله مولود كريم ، بهى الطلعة ، مليح المحيا ، فحرك منها عوامل الحنان ، وتملكها من أجله الرفق والإشفاق ، وألقى الله عليه محبة منها ، فأمرت به أن يحمل الى داخل القصر ، وأن يتعهد بالعناية ، ويشمل بالرعاية

ولما وصل خبره إلى فرعون أمر بقتله ؛ لأنه كان رأى مناماً قد هاله ، فأحضر الكهنة والمفسرين من أرباب دولته،وقصَّ عليهم رؤياه فحذروه من مولود يولد فى زمانه يكون سبباً فى خراب ملكه ، فأمر بقتل كل من يولد فى عهده من الصبيان من بنى إسرائيل ، فحالت دون قتله آسية ، وشفعت له عند فرعون،وقالت له : ليس لى ولا لك ولد،فلا تقتل هذا الغلام عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، فسمح به اليها أن تربيه

فلما أمنت آسية عليه سمته(موسى) ورُبى فى دار فرعون حتى بلغ أشده ونال منه مانال . وقصته معروفة وسبق ذكرها ضمن قصص الأنبياء فى الجزء الأول

وكانت آسية ممن آمن بموسى فيما بعد . فلما أدرك فرعون منها ذلك انقلب عليها وتبدل حبه لها عداء ، ولكنها لم تكن تعبأ به لما كانت تعلم من أنها على الحق ، وأن سيدنا موسى عليه السلام نبى مرسل فلم يغرها منه رخاء ، ولم يجتذبها اليه وعد ، ولم يهددها منه وعيد ، حتى ماتت ولسانها لايفتر عن ذكر الله وهى تقول :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾

وقد أجاب الله دعاءها ، فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم :

«خير نساء الجنة خديجة ، وفاطمة ، ومريم ابنت عمران ، وآسية امرأة فرعون »

٥ — أم الخير بنت الحريش

كانت من المتكلمات الخطيبات البليغات من نساء العرب

قيل: أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير ابنة الحريش ورحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً بقولها فيه

فلما ورد عليه كتابه ركب اليها ، فأقرأها كتابه، فقالت: وأما أنا فغير زائغة عن طاعته ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها : ياأم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه مجازينى بالخير خيراً ، وبالشر شراً فما عندك ؟

قالت : ياهذا لايطمعك برّك بى أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرم ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه

فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير بحق مادعوتنى بهذا الاسم

قالت : يا أمير المؤمنين لكل أجل كتاب

قال : صدقت ، فكيف حالك ياخالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟

قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين فى خير وعافية حتى سرت اليك ، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق

قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم

قالت : يا أمير المؤمنين يعيذك الله من دحض المقال ، وماتخشى عاقبته

قال : ليس هذا أردنا أخبرينى كيف كان كلامك إذ قتل عمار ابن ياسر ؟

قالت : لم أكن زوّرته قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فان أحببت أن أحدثك مقالاً غير ذلك فعلت ؟

فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟

فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين

قال : هات

قال : كأنى بها بين بردين زائرين كثيفى النسيج ، وهى على جمل

أرمك ، وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدر فى شقشقته تقول :

« يأيها الناس ،اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبيَّن السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبةً عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم قول الله جل شأنه :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللّهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع اللّهم بها الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله

هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، انها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وَثَبَ بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بنى عبد شمس، ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر، انهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون

صبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم

وثبات من دينكم، فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرّت من قسورة، لاتدرى أيًا يسلك بهـا من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدٰى، وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص، ان من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل، ألا ان أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، وتقوى كلمة الشيطان، فالى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى الله عليـه وسلم وصهره وأبى سبطيه خلق من طينته، وتفرَّع من نبعته، وجعله باب دينه، وأبان ببغضه المنافقين، وهاهوذا مفلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزيه، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرَّق به جميع أهوائهم، فيالها من وقائع زرعت فى القـلوب نفاقاً، ورِدة وشقاقـاً، وزادت المؤمنين إيمانًا، قد اجتهدت فى القول، وبالغت فى النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله

فقال معاوية: ياأم الخير ما اردتِ بهذا الكلام إلَّا قتلى، ولو قتلتك ماحرجت فى ذلك

قالت: والله مايسوؤنى أن يجرى قتلى على يد من يسعدنى الله بشقائه

قال : هيهات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله؟

قالت : وما عسيت أن أقول فى عثمان ، استخلفه النـاس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون

قال معاوية : يا أم الخير ، هذا ثناؤك الذى تثنين ؟

قالت : لـكن والله يشهد، وكفى بالله شهيداً، ما أردت بعثمان نقصاً ، ولـكن كان سابقاً إلى الخير ، وأنه لرفيع الدرجة غداً

قال : وما تقولين فى الزبير ؟

قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأنا أسألك بحق الله يامعاوية ، فان قريشاً تحدثت أنك أحْلَمُها أن تعافينى من هـذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها

قال : نعم ، ونعمة عين، قد أعفيتك منها

ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة إلى الـكوفة ، وبقيت فى عزٍّ إلى أن توفاها الله

٦ — بلقيس ملـكة سبأ

اشتهرت بلقيس بقصتها المعروفة مع سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام،وورد ذكرها فى القرآن الـكريم وغيره من الـكتب المنزلة

واشتهرت فى كتب التواريخ بأنه كان لهـا ملك عظيم ، واسع الأطراف عاصمته سبأ فى بلاد اليمن

وكان لها من المجد والسلطان والجمال ، والعز والشرف مايضرب به الأمثال ، حتى قال بعضهم: إنه كان تحت نفوذها ٤٠٠ أربعمائة ملك يستظلون براياتها ، لكل منهم جيش يبلغ أربعين ألف مقاتل

وأما عرشها الوارد ذكره فى القرآن الحكيم ، فقيل: انه كان سريراً ضخماً من ذهب وفضة ، مرصعاً بالجواهر الكريمة ، وكان فى جوف سبعة بيوت ، عليها سبعة أغلاق ، كل بيت داخل الآخر وهو فى آخرها

وقيل : كان مقدمه من الذهب محلى بالياقوت الأحمر ، والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة مكللاً بأنواع الجواهر واللآلى ؛ وأنه وان كان فى هذا الوصف مبالغة عظيمة إلَّا أنه يدل على أنَّ ذلك العرش لم يسبق له مثيل فى الجمال والأبهة

وأما قصتها مع سيدنا سليمان فهى مذكورة فى قصته الواردة فى الجزء الأول من كتابنا أحسن القصص وتتلخص فيما يأتى :

أنه عليه السلام لما سمع بصيتها ، وأوصاف عرشها قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ فجاء الهُدهُد ، وكان قد عرف مكان بلقيس فأخبره بخبرها ودله على مكانها (وكان عليه السلام يعرف لغة

الطير) فكتب لها سليمان كتاباً وقال للهدهد : ﴿ اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ فوافاها وهى فى قصرها ، فرمى الكتاب فى حجرها فقرأته ، فاذا به : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُو عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فأخبرت قومها بأمر هذا الكتاب فقالوا : ﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

قالت : إنى مرسلة اليهم بهدية ، فان قبلها ملكهم فهو من ملوك الدنيا، فنحن أعز منه وأقوى ، و إن لم يقبلها فهو نبى من عند الله

فلما قدم الوفد على سليمان عليه السلام ومعهم الهدية ، ووقفوا بين يديه، نظر اليهم بوجه طلق ثم قال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾

ثم رد الهدية ، فرجع القوم وأخبروها ، فعلمت أنه نبى كريم ، وشخصت اليه فى موكب مهيب محفوف بالجلال والعظمة وجىء اليه بعرشها

ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت ، وقيل: أنه تزوجها ، وتوفيت قبله فدفنها بالشام بناحية يقال لها : (تدمر) وأخفى قبرها عن الناس، والله تعالى أعلم

٧ — بكارة الهلالية

مثال الشجاعة

كانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والإقدام ، والفصاحة والشعر والنثر والخطابة

حضرت مع سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه حرب (صفين) ولها هناك مقالات حماسية جعلت كل من سمعها يقدم على الهلاك بدون مبالاة بالعواقب

قيل : دخلت على معاوية يوماً وهو يومئذ بالمدينـة ، وكانت قد تقدمت فى السن ، وضعف بصرها ، وضعفت قوتها ، ترتعش بين خادمين فسلمت وجلست ، فردَّ عليها معاوية السلام وقال لها : كيف أنت ياخالة؟

قالت : بخير يأمير المؤمنين

قال : غيرك الدهر

قالت : كذلك ، هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات فُقد

فقال عَمرو بن العاص : هى والله القائلة يأمير المؤمنين :

« يازيد دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حساماً فى التراب دفينا »

« قد كنت أُدْخَرُهُ ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا »

وقال مروان : وهى القائلة يأمير المؤمنين :

« أترى ابن هند للخلافة مالكا؟ هيهات ذاك وإن أراد بعيد »

« مَنَّتك نفسك فى الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد »

وقال سعيد بن العاص : وهى والله القائلة :

« قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا »

« فالله أخَّر مدتى فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا »

« فى كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا »

ثم سكتوا فقالت : يامعاوية ، كلامك أغشى بصرى ، وقصر حجتى ، أنا والله قائلة ماقالوا ، وما خفى عليك منى أكثر مما سمعت

فضحك معاوية وقال لها : ليس يمنعنا ذلك من برّك ، اذكرى حاجتك

قالت : أما الآن فلا حاجة لى

وانصرفت ، فوجه اليها معاوية بجائزة سنية لصدقها وشجاعتها

٨ — تُماضر الشهيرة بالخنساء الشاعرة المجيدة

مثال الصبر والثبات

هى ابنة عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح بن يقظة بن عصية ابن خفاف بن امرىء القيس وتكنى (أم عمرو) وإنما الخنساء لقب

غلب عليها ، وهى الظبية ، وسميت فى بادىء الأمر (تُماضر) لبياض لونها ، إذ كانت العرب تسمى المرأة ذات البشرة البيضاء (تماضر) وقد عاشت فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أشعر أهل زمانها ، وهى من المعترف لهن بالتفوق فى هذا الميدان ، وأكثر شعرها فى رثاء أخويها معاوية وصخر

وكان معاوية أخاها لأمها وأبيها ، وكان صخر أخاها لأبيها وأحبهما اليها

واستحق صخر ذلك منها، لأنه كان موصوفاً بالحلم ،مشهوراً بالجود ، معروفاً بالإقدام والشجاعة ، محظوظاً فى العشيرة ، وقد كان من أجمل رجال العرب

فلما قُتل جلست الخنساء على قبره زماناً طويلاً تبكيه وترثيه بأبلغ ماقال الشعراء فى الرثاء . وقد أجمع الشعراء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها

فمن شعرها فى رثاء أخيها صخر :

« ألا ياصخر إن أبكيت عينى فقد أضحكتنى زمناً طويلا »

« بكيتك فى نساء مُعْوِلات وكنتُ أحقَّ من أبدى العويلا »

« إذا قبح البكاء على قتيل رأيتُ بكاءك الحسن الجميلا »

ومنه قولها :

« أعينىّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندا »

« ألا تبكيان الجرىء الجميل   ألا تبكيان الفتى السيّدا »

« طويل النجاد رفيع العما   د ساد عشيرته أمردا »

« إذا القوم مدّوا بأيديهم   الى المجد مدّ اليه يدا »

« فنال الّتى فوق أيديهم   إلى المجد ثم انتمى مُصْعِدا »

« ويحمل لِلقومِ ماعالهم   وإن كان أصغرهم مولدا »

« ترى المجد يَهْوى إلى بيته   يرى أفضل المجد أن يحمدا »

« وإن ذكر المجد ألفيته   تأزر بالمجد ثم ارتدى »

ومن قولها :

« يذكرنى طلوع الشمس صخراً   وأذكره بكل مغيب شمس »

« ولولا كثرة الباكين حولى   على إخوانهم لقتلت نفسى »

« وما يبكون مثل أخى ولكن   أعزى النفس عنه بالتأسى »

وقد قابلتها السيدة عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم بعد مامات أخوها صخر، وهى محزونة محلوقة الرأس، تدب من الكبر والضعف على عصا، فسألتها عائشة :

ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقالت : موت أخى صخر

فقالت عائشة : مادعاك إلى هذا إلّا صنائع جميله فصفيها لى ؟

قالت : نعم، ذلك أن زوجى كان رجلاً متلافاً للأموال، يقامر

بالقداح ، فأتلف فيها ماله، حتى بقينا على غير شىء ، فأراد أن يسافر فقلت له : أقم وأنا آتى أخى صخراً فأسأله ، فأتيته فشكوت اليه حالنا ، وقلة ذات أيدينا ، فشاطرنى ماله

فانطلق زوجى فقامر به ، فقُمر حتى لم يبق لنا شىء ، فعدت اليه فى العام المقبل أشكو اليه حالته ، فشاطرنى بمثل ذلك ، فأتلفه زوجى

فلما كان فى الثالثة أفى الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته ثم قالت : ان زوجها مقامر ، وهذا مالايقوم به شىء ، فان كان ولا بد من صلتها فأعطها خمس مالك، فانما هو متلف، والخير فيه والشر سيان ، فلم يرض صخر بذلك ، بل شطر ماله شطرين وأعطانى أفضلهما ، فلما مات صخر أصبحت على ماترينه ، وحق لى البكاء والعزاء

ولما قدمت الخنساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم استسلمها أى دعاها للإسلام فأسلمت ، واستنشدها فأنشدت ، فأعجب بشعرها وهو يقول : هيه ياخنساء ، ثم انصرفت ولم تنقطع عن أوجاعها وأناتها حتى بعد الإسلام، بل كانت تقص شعرها، وتلبس ثوبًا خلقًا من الجنس الأسود، وتندب أخويها على عادة العرب فى جاهليتها

فلما رآها سيدنا عمر بن الخطاب ذات يوم أثناء طوافها بالكعبة وهى على هذه الحال ، فتقدم اليها ونصحها كثيراً فأجابته : لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به ، فكيف أتحمل مضض فراق فارسين فقدتهما؟

فأجابها عمر بما هوّن عليها المصيبة ، وذكر لها أن مصائب كثير من الناس أشد هولًا لو اطلعت على بواطن أمرهم ، وقال لها : ان ماهى عليه، من الحداد من بدع الجاهلية التى حرّمها الإسلام، فامتثلت أمره

وكانت رحمها الله صادقة الوطنية ، باسلة مقدامة ، فمما يؤثر عنها أنه لما سارت جيوش العرب لفتح بلاد فارس انضمت اليهم ومعها أبناؤها الأربعة ، وحضرت وقعة القادسية المشهورة ، ففى ليلة الوقعة صارت تزودهم بالنصيحة ، وتذكى حميتهم ، ومما قالته لهم :

« يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، فاعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون

فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، فيمموا وطيسها تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة »

فلما أضاء لهم الصبح بادروا إلى مراكزهم، فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية أمهم العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم

فلما بلغها الخبر قالت :

الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمير المؤمنين وقتئذ يعطيها أرزاق

بنيها الأربعة ، وكان لكل منهم مائة درهم إلى أن ماتت رحمها الله ، وأصبح يضرب بها المثل فى الصبر والثبات

٩ — خولة بنت الأزور الكندى

هى أخت ضرار بن الأزور ، كانت مشهورة بالشجاعة والجمال ، خرجت مع أخيها إلى الشام حين فتحها فى خلافة أبي بكر الصديق ، وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة ، ولها وقائع مشهورة

فمن وقائعها ما ظهر من بسالتها يوم أسر النسوة فى وقعة (صحورا) من أعمال الشام ، فقد جمعت النساء وقامت فيهن خطيبة ، وكانت هى من ضمن المأسورات ، فقالت :

يابنات حمير ، وبقية تبع ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولاد كن عبيداً لأهل الشرك؟فأين شجاعتكن و براعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياءالعرب ومحاضرالحضر؟ وإنى أرا كن بمعزل عن ذلك ، وإنى أرى القتل عليكن أهون من هذه الأسباب، وما نزل عليكن فى خدمة الروم

فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية : صدقت والله يا بنت الأزور نحن فى الشجاعة كما ذكرت،وفى البراعة كما وصفت،لنا المشاهدالعظام، والمواقف الجسام،ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل،وهجوم الليل، غير أن

السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح

فقالت خولة : يابنات التبابعة خذن أعمدة الخيام، وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام، فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب

فقالت عفراء بنت غفار : والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب الينا مما ذكرت

ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام، وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عموداً، وسعت من ورائها عفراء أم أبان بنت عتبة، ومسلمة بنت زارع وغيرهما

فقالت لهن خولة : لاينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن، فتملكن، فيقع بكن التشتيت، واحطمن رماح القوم، وأ. كسرن سيوفهم ، وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلن قتالاً شديداً حتى استخلصت النسوة من أيدى الروم، وخرجت وهى تقول :

« نحن بنات تبع وحمير وضربنا فى القوم ليس ينكر »
« لأننا فى الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الأكبر »

ووقائعها كثيرة، وقد أبلت بلاء حسناً فى فتوح الشام ومصر، وعمرت طويلا وكانت وفاتها فى أواخر خلافة عثمان بن عفان رحمها الله رحمة واسعة

فعلى مثل هذه يأسف الدهر وعلى نهجها يُحمد السير

١٠ — الخيزران ابنة عطاء (أم الهادى والرشيد)

كانت ذات جمال ، وبهاء وكمال ، اشتراها محمد أبو عبد الله المهدى بمائة ألف درهم ،واستحظى بها وقدمها على جميع نسائه،لما لها من الأدب واللطف ، وقد أخـذت من قلبه مكانة عظمى، وولدت له موسى الهادى وهارون الرشيد، وقد تقدمت فى خلافة ولدها موسى الهادى ، حتى أنها شاركته فى الأحكام من كثرة تداخلها معه فى أمور المملـكة ، وكان كثير الطاعة لها ، مجيبًا لمـا تسأله من الحوائج للناس، فـكانت المواكب لا تخلو من بابها، وفى ذلك يقول أبو المعافى :

« ياخيزران هناك ثم هناك   إن العباد يسوسهم إبناك »

وذكر المسعودى : كانت الخيزران أم الهادى والرشيد فى دارها المعروفة (بأساس) وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بنى هاشم ، وهى على بساط أرمنى ، وهنَّ على نمارق أرمنية ، وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبة ، فبينا هى كذلك إذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال ، فى أطمار رثة ، تأبى أن تخبر باسمها ، وشأنها غيركم ، وتروم الدخول عليكم . وقد كان المهدى تقدم إلى الخيزران بأن تلزم (زينب بنت سليمان بن على)وقال لهـا :

اقتبسى من آدابها ، وخذى من أخلاقها ، فانها عجوز لنا ، قد أدركت أوائلنا ، فقالت الخيزران للخادم : ائذن لها ، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال ، فى أطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان لسان ، فقالوا لها : من أنت ؟ قالت : أنا(مزينةامرأة مروان بن محمد) وقد أصارنى الدهر إلى ماترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التى علىَّ إلا عارية ، وأنكم لما غلبتمونا على هـذا الأمر ، وصار لكم دوننا ، لم نأمن مخالطة العامة ، على مانحن فيه من الضرر ، على بادرة الينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالة كانت ، حتى تأتى دعوة من له الدعوة ، فاغرورقت عينا الخـيزران ونظرت اليها زينب بنت سليمان بن على ، فقالت : لاخفف الله عنك يامزينة ، أتذكرين وقد دخلت إليك (بحرّان) وأنت على هذا البساط بعينه ، فكلمتك عن جثة ابراهيم الإمام ، فانتهرتني ، وأمرت باخراجى وقلت : ماللنساء والدخول على الرجال فى آرائهم ، فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ، لقد دخلت إليه فحلف أنه ماقتله ، وهو كاذب ، وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع إلىّ جثته ، وعرض على مالاً فلم أقبله ، فقالت مزينة : والله ما نظن هذه الحالة أدّتنى إلى ماترينه إلا بالفعل الذى كان منى ، وكأنك استحسنتيه ، فحرضت الخيزران على فعل مثله ، إنما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير ، وترك المقابلة بالشر لتحرز بذلك نعيمها ،

وتصون بها دينها ، ثم قالت لزينب : يا بنت عم كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق ، فأحببت التأسى بنا ، ثم ولَّت باكية ، فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها إلى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها ، والإحسان اليها ، فلما دخل المهدى عليها ، وقد انصرفت زينب ، وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية ، قصت الخيزران عليه قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالها ، فدعا بالجارية التى ردتها ، فقال لها : لمَّا رددتيها إلى المقصورة ، ما الذى سمعتيها تقول ؟ قالت : لحقتها فى الممر الفلانى ، وهى تبكى فى خروجها مؤتسية ، وهى تقرأ ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ثم قال للخيزران: والله ، والله ، لولم تفعلى بها مافعلت ، ما كلمتك أبداً ، وبكى بكاءً كثيراً ، وقال : اللَّهم انى أعوذ بك من زوال النعمة ، وأنكر فعل زينب ، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت أن لا أكلمها ، ثم بعث اليها بعض الجوارى إلى مقصورتها التى أخليت لها ، وقال للجارية : إقرئى عليها السلام ، وقولى لها : يا بنت عم ، ان اخواتك قد اجتمعن عندى ، ولولا أنى ابن عمك لجئناك ، فلما سمعت الرسالة ، علمت مراد

المهدى ، وقد حضرت زينب بنت سليمان ، فجاءت (مزينة) تسحب أذيالها ، فأمرها بالجلوس ، ورحب بها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على ، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم ، وأيام الناس ، والدولة وتنقلها فما تركت لأحد فى المجلس كلاماً ؛ فقال لها المهدى : يابنت عم والله لولا أنى لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم فى أمرنا شيئاً لتزوجتك ، ولكن لاشىء أصون لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى ، لك مالهن ، وعليك ماعليهن ، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر ، فى حكم به على الخلق ، ثم أقطعها مثل مالهن من الأقطاع ، وأخدمها وأجازها ، فأقامت فى قصره إلى أن قضى المهدى ، وأيام الهادى ، وصدر من أيام الرشيد وماتت فى خلافته لايفرق بينها وبين نساء بنى هاشم

فلما قُبضت جزع الرشيد والخدم جزعاً شديداً ، وأخرجها بمشهد يليق بمثلها

وكلمت الخيزران ولدها الهادى ذات يوم فى أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً ، فاعتل عليها بعلة فقالت : لابد من إجابتى قال : لا أفعل . قالت : فانى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب الهادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها لاقضيتها لك

قالت : إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً

قال : إذاً والله لا أبالى ، وقامت مغضبة .

فقال : مكانك ، فاستوعى كلامى والله وإلَّا نفيت من قرابتى من رسول الله لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ماهذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم ، أمالك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى ، فانصرفت وماتعقل ماتجيب ، فلم تنطق بحلو ولا مرٍّ بعدها

ثم أنه قال لأصحابه : أيماخير أنا أم أنتم ؟ وأمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك خير . قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال : أم فلان فعلت وصنعت ؟ قالوا : لانحب . قال : فما بالكم تأتون منزل أمى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ، وبعد مدة من الزمن تناست هذه الحادثة ، فبعث الهادى بأُرز إلى الخيزران وقال لها : قد استطبتها فكلى منها ، فقيل لها : امسكى حتى تنظرى ، فجاءوا بكلب فأطعموه ، فسقط لحمه لوقته ، فأرسل اليها كيف رأيت الأرز قالت : طيبًا . قال : ما أكلت منها ، ولو أكلت منها لاسترحت منك متى أفلح خليفة له أم ؟

وكان سبب وفاة الهادى من قبل أمه الخيزران ، كانت أمرت الجوارى بقتله للسبب عينه ، وقيل : كان السبب فى أمرها بذلك أن الهادى لما جد فى خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد فوضعت جواريها عليه لما مرض وأمرتهن بقتله فقتلوه بالغم والجلوس على وجهه فمات ، فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته ، وبعد ذلك بقيت معززة مكرمة عند الرشيدوالمأمون ، إلَّا أنها اقتصرت عن التدخل فى الأحكام ، حتى أدركتها الوفاة فى خلافة المأمون ، وأخرجت باحتفال عظيم لم ينله غيرها من نساء الخلفاء رحمها الله تعالى

١١ — الدارمية الحجونية

كانت فصيحة اللسان ، بليغة البيان ، غير هيابة فى المقال ، لايسألها أحد سؤالًا إلَّا جاوبته بأحسن جواب ، وأقنع خطاب

قال أبو سهل التميمى : لما حجَّ معاوية سأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل (بالحجون) يقال لها (دارمية)وكانت سوداء ، كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث اليها فجىء بها، فقال : ماجاء بك يا ابنة حام . فقالت : لست بابنة حام ، أنا امرأة من بنى كنانة وأنت طلبتنى قال : صدقت: أتدرين لم بعثت اليك ؟ قالت : لايعلم الغيب إِلَّا الله. قال : بعثت اليك أسألك عَلامَ أحببت عليًا وأبغضتنى، وواليته وعاديتنى؟

قالت : أو تعفينى ؟ قال : لا أعفيك . قالت : اما إذا أبيت فانى أحببت عليًا على عدله فى الرعية ، وقسمته بالسّوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبك ماليس لك به حق ، وواليت عليًا على ماعقد له رسول الله صلى الله عليـه وسلم من الولاء ، وحبه المساكين ، واعظامه لأهل بيته ، وعاديتك عن سفك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، ور بت عجيزتك

قالت : ياهذا بهند والله كان يضرب المثل فى ذلك

قال معاوية : ياهذه اربعى فانا لم نقل إلَّا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها ، و إذا عظم ثدياها تروّى رضيعها ، و إذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها

فلما سمعت ذلك رجعت وسكن غضبها ، ثم قال لها : ياهذه هل رأيت عليًا ؟ قالت : نعم . رأيته . قال : فكيف رَأَيْتِهِ ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك

قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم . والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الصدأ من الطست

قال : صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم : قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها جملها وراعيها

قال : ماذا تصنعين بها ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر

قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على بن أبي طالب ؟

قالت : سبحان الله أو دونه ، فأنشأ معاوية يقول :

« إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم »

« خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم »

ثم قال ؟ أما والله لو كان على حياً ما أعطى منها شيئاً

قالت : لا والله ، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين ، ثم أخذتها وانصرفت

١٢ — رابعة العدوية

ابنة اسماعيل البصرية العدوية

كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً ، وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، وكانت ترد ما أعطاه الناس لها ، وتقول: مالى من حاجة بالدنيا ، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها الخلال البالى، تكاد تسقط إذا مشت ، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعت رضى الله عنها (سفيان الثورى) يقول:

واحزناه ! فقالت : واقلة حزناه ! ولو كنت حزينـًا ما هناك العيش .

ومناقبها كثيرة رضى الله عنها ومشهورة ، وجاء فى ترجمتها لابن خلكان انها كانت من أعيان عصرها، وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة ، وذكر أبو القاسم القشيرى فى الرسالة: أنهـا كانت تقول فى مناجاتها : « إلهى تحرق بالنار قلبًا يحبك؟» فهتف بها مرة هاتف « ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء »

وقال بعضهم : كنت أَدْعُو لرابعة العدوية فرأيتها فى المنام تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور

وكانت تقول : ما ظهر من أعمالى لا أعده شيئًا

ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئآتكم

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السّهروردى فى كتاب عوارف المعارف هذين البيتين :

« إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أرادجلوسى »

« فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى »

وكانت وفاتها فى سنة ١٣٥ ذكره ابن الجوزى فى شذور العقود ، وقال غيره سنة ١٨٥ رحمها الله تعالى . وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور

وذكر ابن الجوزى فى كتاب « صفوة الصفوة » فى ترجمة رابعـة المذكورة باسناد له متصل الى عبدة بنت أبى شوال قال : وكانت من

خيار أماء الله تعالى ، وكانت خادمة رابعة تقول : كانت رابعة تصلى الليـل كله ، فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول ، إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة : يانفس كم تنامين ؟ و إلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومة لاتقومين منها إلّا لصرخة يوم النشور ؟ وكان ذلك دأبها مدة حياتهاحتى ماتت.

ولمـا حضرتها الوفاة دعتنى وقالت ياعبدة : لاتؤذنى بموتى أحداً و كفنينى فى جبتى هذه ، وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ، قالت : فكفنتها فى تلك الجبة ، وفى خمار من صوف كانت تلبسه ، ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى عليها حلة استبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر ، لم أر شيئًا قط أحسن منه فقلت : يارابعة مافعلت بالجبة التى كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إن الله نزعه عنى ، وأبدلت به ماترينه على ، فطويت أكفانى وختم عليها ، ورفعت فى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة . فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ، فقالت : وما هـذا عند مارأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ؟ فقلت لها : ما فعلت (عبيدة بنت أبى كلاب) فقالت : هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ، فقلت : وبمَ ؟ وقد كنت عند الناس أكبر منها

قالت : انها لم تـكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو

أمست . فقلت لها : فما فعل أبو مالك ؟ أعنى ضيغما . قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ أعطى والله فوق ما كان يؤمل ، قلت : فمرينى بأمر أتقرب به من الله عز وجل

قالت : عليك بكثرة ذكره يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك رحمها الله تعالى

وكان الحسن البصرى توفيت زوجته فأراد زوجة ، فقيل له عن رابعة العدوية ، فأرسل اليها يخطبها ، فردته وقالت :

« راحتى يا اخوتى فى خلوتى وحبيبى دائما فى حضرتى »
« لم أجد لى عن هواه عوضا وهواه فى البرايا محنتى »
« حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابى إليه قبلتى »
« إن أمت وجداً وما ثم رضا واعنائى فى الورى واشقوتى »
« ياطبيب القلب يا كل المنى جد بوصل منك يشفى مهجتى »
« ياسرورى ياحياتى دائما نشأتى منك وأيضاً نشوتى »
« قد هجرت الخلق جمعاً أرتجى منك وصلاً فهو أقصى منيتى »

وكانت تقول مرة : إلٰهى ، ماعبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، بل حباً لك ، وقصد لقاء وجهك ، وتنشد :

« أحبك حبين حب الهوى وحبًا لأنك أهل لذاك »
« فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواك »
« وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراك »
« فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك »

مثال من زهد رابعة العدوية

روى: أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب اليها :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد، فان الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف ، وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبينى »

فكتبت اليه : بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزن ، فاذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك ، وقدّم لمعادك ، وكن وصىّ نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك ، فصم الدهر ، وليكن فطرك الموت

وأما أنا فلو أن الله تعـالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ماسرّنى أن أشتغل عن الله طرفة عين

وفى هذه الحكاية إشارة إلى أن كل مايشغل عن الله تعـالى فهو نقصان وخسران ؟ فانظروا كيف كان زهد رابعـة العدوية فى الدنيا واشتغالها بذكر الله

١٣ — رَحمة زوجة نبى الله أيوب عليه السلام

هى بنت (أفرايم بن يوسف بن يعقوب) عليهما السلام ، كانت من النساء الصالحات الطائعات لأزواجهن ، وقد اتصفت من دون النساء بالصبر الجميل على بلاء زوجها أيوب عليه السلام حين لم يبق له مال ، ولا ولد ، ولا صديق ، ولا أحد يقربه غيرها ، فانها صبرت معه على مضض ذاك البلاء الشديد ، وكانت تأتيه بطعام وشراب ويبيتان يحمدان الله سبحانه وتعالى ، ويرجوان منه عفواً على مانالهما من البلاء

فلما كانت فى بعض الأيام تمثل لها إبليس فى صورة رجل فقال لها : أين بعلك يا أمة الله ؟ فقالت : هو ذاك مبتلًى فى جسده ، فلما سمع منها طمع أن تكون جزعةً فوسوس لها ، وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمـال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيـه اليوم من الضر ، وإن ذلك لاينقطع عنه أبداً ، فصرخت ، فلما صرخت عـلم

أنها قد جزعت، فأتى بسخلة وقال لها . ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ ، فجاءت تصرخ وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ، أين المـال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين ثوبك الحسن قد تغير وصار مثل الرماد ؟ وأين جسمك الحسن الذى قد بلى اذبح هذه السلخة واسترح

فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه ، أرأيت ماتبكين عليه مما كنا فيه من المـال والولد والصحة مَن أنعم علينا به ؟ قالت : الله . قال : فكم متعنا به ؟ قالت : كذا سنة . قال : فمنذ كم ابتلانا الله؟ قالت : منـذ سبع سنين . قال : ويلك والله ماعدلت ولا أنصفت ربك إلَّا صبرت فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا كما كنا فى الرخاء ، والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتنى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام ، لا أذوق مما تأتينى به بعد إذ قلت هذا، فاعزبى عنى لاأراك ، فطردها

فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها ، وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرَّ لله ساجداً وقال رب : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ ﴾ ثم رد الأمر إلى ربه فقال : ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأوحى الله اليه أن اركض برجلك، فركض فنبعت عين ماء فاغتسل، فلم يبق من دائه شىء ظاهر إلَّا سقط بأثره ، وأذهب الله عنه كل ألم وداء ، وكل سقم ، وعاد عليه

شبابه وجماله أحسن ما كان وأفضل مما مضى ، وجعل يلتفت يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً مما كان من أهل وولد ومال إلّا وقد ضاعفه الله تعالى

فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم ان رَحمة قالت : أرأيت ان كان قد طردني الى من أكله ؟ أأدعه حتى يموت جوعاً وعطشاً ويضيع ، فوالله لأرجعن اليه، ثم رجعت ، فاذا حال أيوب قد تغيرت فجعلت تطوف وتبكى ، وذلك برأى من أيوب ، فأرسل اليها أيوب فدعاها وقال لها : ماتريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذى كان هنا ، لا أدرى أضاع أم ماذا فعل به ؟

فقال أيوب عليه السلام : ما كان منك . فبكت وقالت : بعلى فهل رأيته ؟ فقال : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟ قالت : وهل يخفى على أحد رآه . ثم انها جعلت تنظر إليه وقالت : أما انه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً . قال : فأنا أيوب أمرتنى أن أذبح لابليس ، فانى أطعت الله وعصيت الشيطان، فردّ علىّ ماترين ، فاعتنقته، فقيل : انها مافارقته من عناق حتى مر بها كل ما كان لهما من المـال والولد

فلما برأ أيوب أراد أن يبر يمينه بأن يجلد رَحمـة ، فأمره الله أن يأخذ من جماعة الشجر مبلغ مائة قضيب خفافاً لطافاً ويضربها ضربة واحدة كما قال تعالى :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ الآية

وقيل : كانت رَحمة تكسب له ماتعمل للناس فتبيعه وتجيئه بقوته ، فلما طال عليها البلاء ، وسئمها الناس ، فلم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام تطعمه فما وجدت شيئاً ، فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به ، فقال لها :

أين قرنك ؟ فأخبرته الخبر ، فحزن عليها ، وشكر صنيعها

١٤ — زبيدة أم الأمين

بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور العباسى

فى العصر الثانى للهجرة النبوية ولدت بطلة من بطلات الإسلام زادت نور عصرها إشراقاً « هى السيدة زبيدة »

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية ، فكانت مهبط الحب ، وموطن العناية ، والتجلة والإعزاز ، من قلوب بنى العباس ؛ لاسيما جدها (المنصور) ركن الدولة العباسية ، وعميدها الأجل ، فقد كان يؤثرها بقلبه ، ويختصها بحب فوق كل حب ، وهو الذى لقبها (بزبيدة) لما رأى من بضاضتها ونضارتها ، فغلب عليها هذا اللقب ، وصارت تسمى به دون اسمها الحقيقى ، وكانت تسمى (أم العزيز) وكانت تكنى (أم جعفر)

وقد قام جدها بتربيتها ، فأحسن أدبها ، وعلمها القراءة والكتابة ، وحفظها الأخبار والسير والشعر ، فشبت كلفة بالشعر ، والهة بالأدب ، حتى كانت تزين حوائط غرفتها بالسجف (الستائر) الموشاة بالنظم البديع ، والأبيات الرائعة

وكانت ذات ملامح جذابة ، وجمال خاص بنساء عصرها ، فاشتهر عنها الأدب والكمال والجمال ، مع علو النسب ، حتى صار يضرب بها المثل فى الأندية العالية والمجامع الراقية

وقد ظهر من اعزازها والمغالاة بشأنها يوم أن زفت على ابن عمها الرشيد ، فقد عقد له عليها عام ١٦٥ هجرية وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وتمت حفلة قرانها بأبهة خارقة للعادة لايتسع لها مجال الخيال . فكانت من أبدع الحوادث التى يرويها التاريخ باسهاب وإطناب ، يقصر دونهما كل قول ووصف ، وقد نالت تلك الحادثة استحسان جمهور المسلمين المنتشرين فى أصقاع العالم ، ووقعت من نفوس كبرائهم وأمرائهم موقع الاستحسان ؛ فتهافتوا على هذه الأميرة الهاشمية بأنواع الهدايا ، وأصناف المجوهرات والطيب ، وأدوات الزينة استجلابًا لرضاها ورغبة فى حظوتها

وما كاد يمضى على زواجها أربعة أعوام حتى ولدت له (محمد

الأمين) ثم بعد ذلك بعام واحد أى سنة ١٧٠ هجرية تقلد الرشيد زمام الخلافة بعد أخيه موسى وهو فى العشرين من عمره

* * *

وكانت الأميرة زبيدة وسيمة الطلعة ، طويلة القد ، بضة (ناعمة) الجسم ، بيضاء اللون ، ذات عينين براقتين ، وفم صغير ، فخورة بأصلها وحسبها ، تعتز كثيراً بانتسابها إلى الدوحة الهاشمية ، وتفخر لأنها حفيدة خليفة ، وزوج خليفة ، وأم خليفة ، فكيف لا تباهى ولا تعتز ؟ ومَن تكون من نساء عصرها أجدر بالفخر والسؤدد منها ؟

أما وفور عقلها ، وفضلها ونبلها ، فما سار مسار الأمثال ، ومن أجل هذه المزايا التى قلَّ أن تتوفر فى امرأة أخرى تربعت على عرش بغداد ، وقبضت بيدها على صولجان زمنها الزاهر

وكان لباسها المعتاد جلباباً شاملاً إلى الأرض ، وعلى هذا الجلباب وشاح يزينه نطاق مرصع بالجواهر ، تشده بين عاتقيها وخصرها

وكانت تمتنع عن التحلى بالأحجار الكريمة ، والجواهر النفيسة ، ترفعاً منها وأنفة ، ورغبة فى التميز عن عامة الناس ، فما كنت ترى فى أصبعها خاتماً ، ولا فى معصمها سواراً ، ولا فى جيدها قلادة ؛ وإنما كانت نسيج وحدها فى لباسها وزينتها ، ولهذه الخصلة المتغلبة على نفسها كانت تزين بتلك اللآلىء النفيسة ، التى تضن بها على أى قسم من أقسام

جسمها، أحذيتها ونعالها المرصعة المقصبة بخيوط الذهب

وقد سألهـا ابنها المحبوب (محمد الأمين) عن ذلك ذات مرة فأجابته بوقار وشمم : « أفعل ذلك لأننى لا أريد التشبه بغيرى من النساء »

أجل لقد كانت تنفر من التقليد والمحاكاة نفوراً شديداً ، وهـذا النفور حدا بها إلى إدخال تعديل كبير فى عصابة الرأس التى ابتدعتها (العباسة) أخت زوجها الرشيد، فما كانت تضع شيئًا من اللآلىء والجواهر فى عصابتها كما كانت تضع نساء زمنها ، وإنما تضع قطعة من النسيج الأسود الرقيق بلا ترصيع ولا تطريز تزيد من هيبتها ، وتكسبها كثيراً من الروعة والجلال

وتكاد السيدة زبيدة تكون المرأة الإسلامية الأولى فى استعمال أوانى الفضة والذهب ، والاكثار من اقتنائها ، كما كانت نموذجًا لغيرها فى اقتناء الملابس الحريرية ، والتأنق فى صناعتها ، وكان يعجبها من الألوان الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق

تركت بعد زواجها قصر الخلد، وانتقلت إلى قصرها الخاص المسمى (دار القرار) على شاطىء الدجـلة البديع ، وكان منقطع النظير فى زمانه، تحيط به حديقة غناء، تجلب الأنظار بزهورها، وأشجارها المثمرة الزاهرة . أما داخـل القصر فكان لا يقل بهاءً عن خارجه ، إذ كان

مفروشاً بذوق خاص ، وأثاث منتخب ، وغرفه مزدانة كل منها
بزينة تغاير ما فى الأخرى

وكان سكان « دار القرار » لايقلون شهرةً عن شهرة القصر نفسه،
فقد كانت جوارى الأميرة زبيدة من نخبة الجوارى فى عصرها من
ذوات الجمال ، والمعرفة بالقراءة والكتابة وانشاء الشعر ، وبينهن مائة
جارية اشتهرن بحفظ القرآن الكريم، وتلاوته ليل نهار ، ولكل واحدة
ورد عشر القرآن

وكانت هذه الأميرة العظيمة متمسكة بأهداب الدين ، يعجبها
كثيراً سماع القرآن المبين ، من جواريها الحافظات له ، وقد اشتهر أمر
هؤلاء ، وطار صيتهن فى الأصقاع . ففى كتب التاريخ : إن المار بجانب
قصرها يسمع أصوات ترتيلهن كطنين النحل عندما تكون على مقربة
من خلاياها

وكان لها من قلب الرشيد حمًى لايرام، إذ لبثت ربة القول فى قلبه
وقصره ، رغم المنافسات من جواريه العديدات ، لوفور عقلها ، ونبل
صفاتها، ومزاياها التى انفردت بها دون سواها من نسائه، فكان لايسعى
لأمر دون مشورتها ، ولا يمضى فى عمل دون أخذ رأيها ، وبالاجمال
فانه كان مفتوناً بنفاذ لبها ، ونبل خلقها ، وعظمة قلبها

كانت الأميرة زبيدة من ذوات البرِّ والإحسان ، وخيراتها كثيرة

تجعلها من أمهات المحسنين في الإسلام ، وكانت أموالها وأملاكها وفيرة لاتقع تحت حصر أو قياس ، حتى تحدثوا عن مزارعها وضياعها فى بلاد العجم فضلا عن البلدان العربية

وقد أنشأت كثيراً من المدارس والمستشفيات ، وأمرت بتأسيس الملاجيء ، وحفر الآبار والعيون ، وكان لها فى كل مرافق البرِّ الأثر الجليل .

ففى العام السادس والثمانين بعد المائة من الهجرة حجَّ الرشيد مع امرأته السيدة زبيدة ، وكان فى صحبته خلق كثير من الأعوان والأمراء من بينهم ولداه الأمين والمأمون ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى . وقد أظهرت الأميرة أثناء حجها من المبرات والحسنات مالايدع قولاً لقائل ، ولا سبيلاً لمفتخر ، مما أسسته من مساجد ، ومكاتب ، وملاجىء ، ومنازل ومشارب ، فكل ذلك ألسنة تنطق بخيرها العميم ، أبد الدهر ومدى العمر ، وهذا كله لايقاس بمفخرتها الخالدة وهى (عين زبيدة) وبتلك العين التى حفرتها فى صحارى الحجاز الجرداء ، وأجرت منها الماء إلى مكة المكرمة ، قد وفرت العناء ، واحتمال ضروب المشقات عن مئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام الذين كانوا يحتملون من قِرب الماء مايوقر ظهورهم

وقد كلف حفر اثنى عشر كيلو متراً من هذه العين الجارية ، التى يعد

مشروعها نفحة من نفحات الاله ، ألف ألف وسبعمائة ألف دينار (أجمعت على هذا التقدير كل التواريخ)

ومن غريب آثارها فى مكة قصر من البللور أنشأته فى نفس مكة ويعد آية الآيات فى صنعه

ولما مات الرشيد (بطوس) كان ابنه المأمون فى مدينة (مَرو) والياً على (خراسان) وكان الأمين ببغداد ، وزبيدة (بالرقة) فانتشر نعى الخليفة بسرعة البرق ، وسعى (صالح بن هارون) إلى الأمين بخاتم الخليفة وسيف أبيه ، وكسوته الخاصة ، مبايعاً له حسب التقاليد والعادات

وكان الأمين قد انتقل من قصر الخلد إلى دار الخلافة ، وبايعه الوزراء والجند بالخلافة عقب صلاته وخطبته حسب العادة المتبعة

أما الأميرة زبيدة فقد طاب لها المقام فى (الرقة) ولم تشأ أن تحضر إلى بغداد ، ولكن ابنها الخليفة ألح عليها فى الحضور فلم تر بداً من إجابة دعوة ولدها المحبوب ، فتوجهت إلى العاصمة فى شعبان واستقبلها ابنها باحتفال مهيب من مدينة الأنبار ، وكان لوصول الأميرة أثر من العظمة الخالدة التى لايمكن نسيانها ، حيث وصل موكبها بين الهتاف المتواصل ، وأصوات التهليل ، ومظاهر التقدير والتبجيل ، إلى بغداد ، ووقف أمام قصر الخلافة ، ولم يمض زمن طويل على خلافة الأمين حتى قتل فى الثامنة والعشرين من حياته ، وتولى الخلافة من بعده المأمون

ولهذا اضمحل نفوذ زبيدة ، واضمحل شأنها ، ولم يبق لعظمتها مجال ، واضطرت أن تعيش فى دائرة محدودة فى سكون واستكانة، لأن (طاهر بن الحسين) قائد المأمون اضطهدها، وعمل على تعذيبها، وأذاقها ألوان التحقير والاهانة ، وهكذا الدهر بالناس قلب، إذا صفا لأحد يوماً ففى غد يتقلب

ولقد صبرت زبيدة على الأذى ، وتحملت كل ذلك بصبر وثبات جأش ، وانها لجديرة بالتقدير لثباتها هذا ، لأن زبيدة العظيمة (امرأة الرشيد) تلك التى عاشت مكرمةً معززةً ، مرفهة طول حياتها ، دون أن يصيبها مكروه ، أو يعكر صفو حياتها أذى ، أو تسمع أو ترى مايشعر بهوانها ومذلتها لم تذق طعم الهوان قبل ذلك اليوم

وقد تألمت زبيدة من تلك المعاملة القاسية التى عاملها بها هذا القائد الظلوم ، وعند ما فرغ صبرها ، وضاق ذرعها ، تجلدت فأمسكت القلم بيمينها ، وسطرت كتاباً إلى المأمون تستعطفه وتقول :

«كل ذنب يأمير المؤمنين وإن عظم، صغير فى جانب عفوك ، وكل إساءة وإن جلت، يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عودكه الله أطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ودفع عنك الشر والضير

وبعد ، فهذه رقعة الولهى ، التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر ، فان رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة

حيلتي ، وتصل رحمي ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً ، وفيه راغباً فافعل ، وتذكر من لو كان حيًّا لكان شفيعي لديك»

ثم أضافت إلى ذلك أقوالًا شرحت فيها معاملة طاهر واضطهاده لها ، وقالت : فان كان مايفعله صادراً عن رضاك رضيت بنصيبي من الأقدار ، وإن كان يعتسف بغير رأيك فانك قادر على تغيير الحال

وقد أرسلت الرقعة مع جارية لها تدعى (خالصة) وأوصتها أن تسلمها إلى المأمون يداً بيد ، وما كاد المأمون يقرؤها حتى بكى وقال لمن حوله، قول على عليه السلام عندما وصل اليه خبر استشهاد عثمان رضى الله عنه : والله ما كان ذلك برأيي ولا علمي

ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ، وردَّ اليها أموالها وضياعها ، وعمل على رفع قدرها ، وإصلاح شأنها ليمحو من نفسها أثر الأحزان التى انتابتها، كما وبخ طاهراً على مافعله

وكتبت أبياتًا للمأمون ترثى بها سوء حالها بعد فقد ولدها

« لخير إمام قام من خير عنصر — وأفضل سام فوق أعواد منبر »

« لوارث علم الأولين وفهمهم — وللملك المأمون من أم جعفر »

« كتبت وعيني مستهل دموعها — اليك ابن عمى من جفون ومحجر »

« وقد مسني ضير وذل كآبة — وارَّق عيني يا ابن عمى تفكرى »

« دهمت لما لاقيت بعد مصابه — فأمرى عظيم منكر أىّ منكر »

« سأشكو الذى لاقيته بعد فقده اليك شكاة المستضير المقهر »

« وأرجوك لما قدمر بى مذ فقدته فأنت لبثى خير من رب معمر »

« أتى (طاهر) لاطهر الله طاهراً فمـا (طاهر) فيما أتى بمطهر »

« فأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالى وأضرب أدؤرى »

« يعز على هرون ماقد لقيته وما مرّ بى من ناقص الخلق أعور »

« فان كان ما أبدى بأمر أمرته صبرت لأمر من قدير مقدر »

« تذكر أمير المؤمنين قرابتى فديتك من ذى حرمة متذكر »

فلما قرأها المـأمون بكى وقال : أنا الطالب بثار أخى ، قتل الله من قتله . ثم ان المأمون عطف على زبيدة فجعل لها مكاناً فى قصر الخلافة ، وأقام لها الوظائف والخدم والجوارى

بعـد ذلك عاشت زبيدة فى عيشة راضية ، ونعمة تامة ، تستعيد بهجتها السابقة ، وعظمتها السالفة ، وتعمل على نسيان الإساءة التى لحقتها على يد طاهر بن الحسين، تحت ظلال وارفة من نعم المأمون وإحساناته المتواليـة

وبعد أن تزوج المـأمون (بوران) محبوبته بست سنوات انتقلت السيدة زبيدة من دار الفناء إلى دار البقاء فى التـاسعة والستين من عمرها ، وكانت وفاتها ببغداد فى جمادى الأولى سنة ٣١٦ هجرية رحمها الله رحمة واسعة ، وتركت صفحة ممتازة ناصعة

فالأميرة زبيدة هذه من مليكات الشرق ذات الأثر الباهر ، ومن أجل نساء الإسلام ذكراً ، ومن مخدرات الإسلام التى كانت عوناً على رفع كلمة الشرف

فاذا ماذكر اسمها وجب أن يذكر مقروناً برفاهة الشرق وفخامته وما كان له من علو الشأن فى العصر الثانى للهجرة ، وبالجملة لقد كانت امرأة عظيمة ، وسيدة أميرة

١٥ — سارة (زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام)

كانت أحسن نساء زمانها جمالا ، وأوفرهن عقلاً وكمالا ، تزوجت بسيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكان يحبها محبة عظيمة ، وكانت لم تَعصهِ فى شىء ما ، وبذلك أكرمها الله تعالى، وكان قدم بها ابراهيم إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى ، وقد وُصف له حسنها وجمالها ، فأرسل إلى ابراهيم عليه السلام فجاءه فقال له : ما هذه المرأة منك ؟

فقال : هى أختى ، وتخوف إن قال هى امرأتى أن يقتله

فقال له : زينها وأرسلها إلى حتى أنظر اليها ، فرجع ابراهيم إلى (سارة) وقال لها : إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته إنك أختى فلا تكذبينى عنده ، فانك أختى فى كتاب الله عز وجل

ثم أقبلت (سارة) على هذا الجبار وقام ابراهيم عليه السلام يصلى، فلما دخلت عليه ورآها أهوى اليها يتناولها بيده ، فيبست يده إلى صدره فلما رأى ذلك عظم أمرها وقال لها : سلى ربك أن يطلق يدى ، فوالله لا آذيتك

فقالت (سارة) اللَّهم إن كان صادقاً فاطلق له يده ، فأطلق الله تعالى يده

وقيل: أنه فعل ذلك ثلاث مرات بقصد أن يتناولها فتيبس يده فلما رأى ذلك ردَّها إلى ابراهيم ووهب لها (هاجر) وهى جارية قبطية ، فأقبلت إلى ابراهيم ومعها هاجر وهى تحمد الله تعالى على عصمتها من فرعون

وكانت (سارة) قد حرمت الولد حتى شاخت وأسنت، فوهبت (هاجر) إلى ابراهيم بقولها : إنى أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى يرزقك منها بولد، فوقع ابراهيم على هاجر فولدت له (اسماعيل) عليه السلام

وكانت (سارة) بنت تسعين سنة، وابراهيم ابن مائة وعشرين سنة، وبُشر ابراهيم بأنه سيرزقه الله بولد من سارة ، وقد كان وحملت سارة (باسحٰق) وقيل : كانت حملت هاجر باسماعيل فوضعتا معاً ، وشب الغلامان

فبينما هما يتناضلان ذات يوم ، وكان ابراهيم عليه السلام سابق

بينهما ، فسبق اسماعيل ، فأخذه وأجلسه فى حجره ،وأجلس اسحٰق إلى جانبه ،وسارة تنظر اليه ، فغضبت وقالت: عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك ، وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جانبك

وقد كان أخذها ما يأخذ النساء من الغيرة ، فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقتها ، ثم ثاب اليها عقلها، فبقيت فى ذلك ؟ فقال لها ابراهيم عليه السلام : اخفضيها وأثقبى أذنها ، ففعلت ، فصار ثقب الأذن سنة فى النساء

ثم ان اسماعيل واسحٰق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان ، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لا تساكننى فى بلد ، وأمرت ابراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله اليه أن يأتى بهما إلى مكة فذهب بهما ، وقصتهما مشروحة فى قصة ابراهيم الخليل فى الجزء الأول من أحسن القصص

وتوفيت (سارة) ولها من العمر مائة واثنتان وعشرون سنة، وقيل : مائة وسبع وعشرون سنة بالشام بقرية الجبابرة بأرض كنعان فى (جيرون) فى مزرعة اشتراها ابراهيم عليه السلام ودفنت بها ، وتسمى تلك المزرعة حقل المكفيلة (فى التوراة) الحالية

١٦ — ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمى

كانت من أجمل نساء زمانها، وأوفرهن عقلاً، وأثبتهن جَنَانًا، وأعلاهن رَأيًا، وأشَدهن حَزْمًا، شاركت أخاها الحاكم بأمر الله فى إدارة شئون الملك، حتى صار يَقْطَعُ الأمور عن رأيها. وقد كان الحاكم بأمر الله متصفًا بالجوْرِ، والظلم، والعَسْف فى أمور الرعية، وغلا فى النهب والسلب ونَهْك الحُرُمات، حتى أبغضه أهل مصر ولم يُخفوا كراهتهم له، وصاروا يلعنونه فى كل مكان، ويضرعون إلى الله أن ينُقذهم من جَوْره. وقد بلغ به الجنون أنه أمر باحراق مصر ونهبها انتقامًا من أهلها، فأطاعه جنوده وقاتلوا أهلها أشدَّ قتال مدة يومين، وفى اليوم الثالث انضم الأتراك إلى أهل مصر وهددوه، فلما رأى ذلك أمر بالكف عن القتال بعد أن أُحرق جزء كبير من المدينة، ونُهِبَ الكثير من بيوتها وحوانيتها، فلما اشتد غيظ الناس وحَنَقُهم عليه، ظن أن ذلك من أخته (ست الملك) لعلمه أنها تُخَالِطُ الساسة والعلماء، لِرُقى عقلها، وعُلُوِّ كعبها فى السياسة وتدبير الأمور بالحكمة، وصائب أفكارها، فعَمَدَ من حُمْقِه وجهله إلى قتلها واغتيال حياتها. فلما علمت بذلك، عوَّلت على الكيد له حفظًا لحياتها وتخليصًا للرعية منه، فأرسلت إلى قائد كبير، وقالت له : أنت تعلم مايعتقده أخى

فيك ، وأنه متى تمكن منك لايُبْقى عليك ، وقد بلغ منتهى الظلم والعسف ، واشتد بالعباد الأمر ، وأخاف أن يقوموا عليه قَوْمَةَ رجل واحد ، فيهلك ونهلك نحن معه ، وتنقرض الدولة . فراق لديه ماقالت ، ثم قالت : إن الحاكم سَيُصَعِّد فى هذا الجبل غداً ولا يَصْحَبه إلا صبى ، فأقِم رَجُلين تَثِق بهما يقتلانه والصبىَّ ، ثم نقيم ولده من بعده ، وتكون أنت مدير الدولة وأَزيدُ فى إقطاعك مائة الف دينار . ثم أعطته ألف دينار للرجلين ، فاختار اثنين من ثقاته وأخبرهما بالقصة ، فمضيا إلى الجبل ، ولما انفرد الحاكم هجما عليه وقتلاه ، وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر . فلما أيقن الناس بقتله ، اجتمعوا إلى اخته (ست الملك) لعلمهم بكفاءتها ، وثِقتهم بعدلها ، ونزاهتها ، وبُعد نظرها ، وشاوروها فيمن يخْلُف أخاها ، فأجلست على سرير الُحكم (على بن الحاكم) وهو لا يزال صبيًا ، وبايع له الناس ولقبوه (بالظاهر) وأنشأت (ست الملك) تدير الدولة وصيةً على ابن أخيها ، رافعة لواء العدل بين الرعية ، منصفة للمظلومين ، ضاربة على أيدى البُغاة والطاغين ، فأحَسَّ الناس بالفرق العظيم بين حُكمها وحكم أخيها ، فأحبوها حباً جمًّا ، ولكنها لم تعَمَّر طويلا ، فماتت بعد أربع سنين سنة ٤١٥ هـ . فَحَزِنَ عليها أهل مصر ، ولم يَنْسَوْا فضلها العميم . أثابها الله جزاء إحسانها ، وأجزل لها الأجر فى دار النعيم

١٧ — شجرة الدر (عصمة الدين)

هى أول امرأة فى الإسلام تقلدت الملك، وأدارت دفة الحكم بمهارة وحسن دراية

وكانت فى أول أمرها جارية ظريفة يحبها (الصالح نجم الدين أيوب) الملك السابع فى حكومة الدولة الأيوبية . فولدت له غلاما سمى (خليل) وتزوجها بعد ذلك وأشركها فى الحكم ، وقد أظهرت قدرة خارقة للعادة فى إدارة الأمور ، وكانت تمده برأيها وتعاونه بفكرها ، وكانت الزوجة الصالحة ، شريكة العمر ، وصديقة الحياة ، فبدأ يشعر بقيمة هذه المعونة الأدبية . ويقدرها حق قدرها ويسر بها

ومن جليل أمرها أنه لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب بناحية المنصورة فى قتاله مع الافرنج ، قامت بالأمر ، وكتمت موته واستدعت ابنه (توران شاه) من بلاد (القوقاز) وسلمت اليه مقاليد الأمور ، وتسلطن بقلعة دمشق فى رمضان سنة ٦٤٧ ﻫ وقدم إلى الصالحية وأعلن يومئذ بموت الصالح نجم الدين ، ولم يكن أحد قبل ذلك يتفوه بموته ، بل كانت الأمور جارية على حالها ، وشجرة الدر تدير أمور الدولة وتوهم الناس أن السلطان مريض ولا سبيل لوصول أحد اليه

وكان (توران شاه) ملكاً مستبداً ، وحاكماً مغروراً ، فكرهته

الرعية بعد أربعين يوماً من تولية الحكم ، وجاهرت المماليك البحرية بعدوانه وأقسمت بالانتقام منه

و بينما كانت (شجرة الدر) فى قصرها بالمنيل تقضى أوقات الحياة محفوفة بالعز والإجلال،أرسل اليها (توران شاه) يطلب منها رد أموال أبيه وأملاكه ، و يهددها باستعمال القوة والعنف . فردت عليه تقول : أنها صرفت أموال أبيه فى الجهاد المقدس ؛ إلّا أن جوابها لم يرق فى نظره ، فغضب غضباً شديداً ، وقابل إجابتها بلهجة عنيفة ، لايليق صدورها من رجل لامرأة أبيه

وما كانت (شجرة الدر) تنتظر مثل هـذه المعاملة الخشنة، وأثارت هذه الحادثة الحنق والغيظ فى نفوس المماليك ضد (توران شاه)

وتذكرت (شجرة الدر) جميل صنعها مع ابن زوجها ، و كيف أنها جاهدت فى سبيل كتمان خبر الوفاة ، وكيف دبرت مجىء ولى العهد ، ومهدت له سبيل الحكم ، وكانت كلما عاودتها الذكرى اشتد غضبها ، وازداد هياجها،وتمردها نحوه ، لأنه لو لم تكن (شجرة الدر) لانفجرت قنابل الثورات فى البلاد ، عقب وفاة الملك الصالح ، ولولا تدبيرها لساء الحال والمآل ، فلا لوم عليها ولا تثريب إذا هى رفعت لواء التمرد والعصيان ضده، فقد اتسعت شقة الخلاف بينهما، وأخذ الذين يحتاطون

(بتوران شاه) يعملون على اشتداد الأزمة وينفخون فى صدره مايزيد النار إضراماً فيقولون له :

إنما الملك والقوة فى يد (شجرة الدر) وما أنت سوى صورة للحكم، إنك لضعيف عاجز، لاتستطيع أن تتمتع بالسلطة ، مادام منافسوك على قيد الحياة

ولما أساء (توران شاه) تدبير نفسه قتله المماليك البحرية شر قتلة بعد سبعين يوماً من ولايته ، وبموته انقرضت دولة بنى أيوب من مصر

ثم اجتمع المماليك البحرية على أن يقيموا بعده فى السلطنة (شجرة الدر) باجماع الاراء أميرة لهم تحت عنوان (الملكة عصمة الدين) فأقاموها بحفلة زاهرة، وحلفوا لها يمين الطاعة فى عاشر صفر، ورتبوا (عزالدين أيبك التركمانى) مقدم العسكر، فسار إلى قلعة الجبل ، وأنهى ذلك إلى (شجرة الدر) فقامت بتدبير المملكة، وكانت تقطن فى سراى النيل على شاطىء النيل فى قصر بديع ، وأجمل موقع من مواقع مصر

وما كادت تتسلم زمام الحكم حتى تركت قصرها البديع وما فيه من نفائس وزخارف، وانتقلت إلى القلعة المشهورة، التى بناها صلاح الدين الأيوبى، واتخذتها مقراً لحكمها. وبدأت (شجرة الدر) تجمع وزراءها فى غرفة من غرف القلعة وتحضر مجلسهم (من وراء ستار رقيق) ثم عينت

أحدهم وهو (عز الدين بن أيبك التركمانى) فى رتبة رئيس الوزراء .
وكان رجلاً مقداماً، وقائداً محنكاً، جرىء القلب ، زكى الفؤاد ، مشهوراً بعلمه وفضله ، وحسن درايته ، فعرف كيف يستولى على قلوب الشعب وينال ثقتهم ؛ كما أنه عرف كيف يفوز بالتفات الملكة وحسن تقديرها لكفاءته

وكان الخطباء يخطبون فى يوم الجمعة باسمها على المنابر ويقولون : « احفظ اللّهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب »

ولم تكتف (شجرة الدر)بأن يقرأ اسمها فى خطب الجمعة بل ضربت نقوداً باسمها نقشت على وجه منها : بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الوجه الآخر ، المستعصمة الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة منصور خليل الخليفة أمير المؤمنين

وكانت توقع بقولها: (والدة خليل)

ولقد أحدثت فى الإسلام بدعة المحمل الشريف ، ففى عهدها سافر

أول محمل فى الإسلام من مصر إلى الحرمين الشريفين

وكانت (شجرة الدر) رغم مظاهر حياتها الخصوصية امرأة مسلمة

ذات ميزة خاصة فى حياتها العمومية ، وكانت على علم تام بنفسية الشعب ، ولم تكن حكومتها استبدادية ، لاتشرع فى عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ، ولا تصدر قراراتها إلّا بعد الرجوع إلى رأى وزرائها ومستشاريها ، وإذا حدثتها نفسها بأمر تريد إبلاغه إلى الناس مباشرة أرسلت فى طلب وزيرها (ابن أيبك) و بعد المباحثة والمناقشة معه تأمر باصدار أوامرها الملكية

و بينما كان حكم (شجرة الدر) آخذاً فى طريق الشهرة بما كان يلاقيه من أقبال الشعب ورضائه ، بدأت عصابة من الناس من أتباع (توران شاه) الذين فروا إلى الشام تدس الدسائس، وتنصب شباك الفتن، حول عرشها، رغبة فى إسقاطها

وقامت الفتن على ساق وقدم ، وبدأ العصاة من أهل الشام ينفخون فى أبواب النفاق ، بما يرمى إلى الشقاق ، بدعوى أنه لايجوز شرعًا لامرأة أن تتولى شؤون المسلمين ، مع أن شجرة الدر لم تأت أمراً يغضب عامة المسلمين، سواء أ كان فى مصر أو فى سوريا ، فضلا عن احترامها لمقام الخليفة (المستعصم بالله)

وانتهت هذه الفتن بدعوة أمير حلب (الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى) و بايعوه أميراً على الديار الشامية ، فسار إلى دمشق وملكها ، فانزعج العسكر بالقاهرة

وقد أدركت (شجرة الدر) بفطنتها وحسن درايتها حقيقة الحال ، فعقدت مجلساً من أركان الدولة واستشارتهم فى الأمر ، فقر رأيهم بالاجماع على أن تترك زمام الادارة إلى (عز الدين بن أيبك) وأن يعقد له عليها عقب تنصيبه الحكم ، ثم تنفذ القرار ، وتعين (عز الدين بن أيبك) سلطاناً على مصر ، ونزلت شجرة الدر عن الملك بعد أن حكمت ثمانين يوماً ، وأرسلوا إلى الخليفة يشعرونه بتبدل الحال

ولم يتغير الحال كما زعموا ، بل كانت (شجرة الدر) هى الحاكمة تنهى وتأمر من وراء الستار ، عقب زواجها بأمير البلاد عز الدين

تربعت (شجرة الدر) فى قلب (عزالدين) كما تربعت فى عرش مصر من قبل ، فكان يخدمها خدمة جليلة ، ولا يتوانى لحظة عن سلوك السبل المؤدية إلى راحتها ومرضاتها

ولم تصل (شجرة الدر) إلى هذه المنزلة اعتباطاً ، ولم يحلها عز الدين من نفسه ذلك المحل الأسمى إسرافاً ، فقد كانت امرأة زاهية زاهرة ، ذات ذكاء وعلم ودراية

وكان (عز الدين) مفتوناً بشجرة الدر منذ زواجه بها عام ستمائة وثمانية وأربعين هجرية

وكان يحبها ويحترمها من أعماق قلبه ، لذكائها ، وجمالها ، ومركزها وماضيها المجيد

ولكن كان له زوجة أخرى هى أم ولده الوحيد (نور الدين) عقد عليها قبل زواجه بشجرة الدر ، فحكمت عليه بالابتعاد عنها بتاتًا ، وأمرته باحضارها وتطليقها منه فى الحال ، فتم لها ما أرادت ، وظلت نيران الغيرة تتأجج فى صدر عز الدين وشجرة الدر ، واتسعت شقة الخلاف بينهما ، حتى انقلبت على ممر الأيام إلى خصومة شديدة ، انتهت بقتله ، أولا ، بتدبير شجرة الدر فى الحمام و إخفاء جثته ، ثم بقتلها

وجاء فى كتب التاريخ أن أم نور الدين أمرت جواريها فانهلن (بالقباقيب) على شجرة الدر إلى أن ماتت شر موتة ، ودفنوها فى المقصورة الخاصة بها داخل المسجد المعروف باسمها بجوار السيدة نفيسة بالقاهرة ، ولقد فرّ بعض الأغوات الذين اشتركوا فى مقتل (عز الدين) وألقى القبض على البعض الآخر ، وصلبوا داخل القلعة

وبذلك انتهت حياة تلك الملكة الكريمة ، صاحبة الخيرات العديدة ، والحسنات العظيمة ، التى يعدها المؤرخون خارقة من خوارق الدهاء ، ولا يذكرونها إلّا بالثناء ، ويعرفونها بأنها كانت عاقلة ، قارئة ، كاتبة ، ذات فطنة ودراية ، فالعصمة والكمال لله وحده ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير

١٨ — صفية بنت عبد المطلب

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أم الزبير بن العوام وأمها (هالة) بنت وهب ابن عبدمناف بن زهرة، وهى شقيقة حمزة والعوام وحجل بنى عبدالمطلب، لم يختلف فى إسلامها من عمات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى الجاهلية قد تزوجها الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس أخو أبى سفيان بن حرب ، فمات عنها ، فتزوجها العوام بن خويلد فولدت له الزبير وعبد الكعبة، وعاشت كثيراً، وتوفيت (بالبقيع)

ولما قتل أخوها حمزة ، وجدت عليه وجداً شديداً ، وصبرت صبراً عظيماً

وقيل : انها أقبلت لتنظر إلى حمزة (بأحد) وكان أخاها لأمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير : القها فارجعها لاترى مابأخيها ، فلقيها الزبير وقال : أى أمى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى ، قالت : ولِمَ فقد بلغنى أنه مثل بأخى وذاك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأصبرن ، ولاحتسبن إن شاء الله

فلما جاء الزبير اليه وأخبره بقول صفية، فقال : خلِّ سبيلها ، فأتته فنظرت اليه، واسترجعت، واستغفرت له

ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن

وقيل : كانت صفية بنت عبد المطلب فى (فارع) حصن حسان بن ثابت مع النساء والصبيان حيث خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت صفية : فمر بنا رجل يهودى فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت (بنو قريظة) وقطعت مابيننا و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا و بينهم أحد يدفع عنا ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لايستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم ان أتانا آت، قالت :

فقلت: ياحسان إن هذا اليهودى يطوف بالحصن كما ترى ، ولا آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود ، فانزل اليه فاقتله ، فقال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت صفية : فلما قال ذلك لم أر عنده شيئًا احتجزت وأخذت عموداً ونزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن فقالت : ياحسان، انزل فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه إلَّا أنه رجل. فقال : مالى بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب

وهى أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين

وكانت شاعرة فصيحة ، متقدمة عند جميع العرب بالقول والفعل والشرف والحسب والنسب ، ومن قولها ترثى النبى صلى الله عليه وسلم :

« ألا يارسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برًّا ولم تك جافيا »

« وكنت رحيمًا هاديًا ومعلمًا ليبك عليك اليوم من كان باكيا »

« فدى لرسول الله أمى وخالتى وعمى وخالى ثم نفسى وماليا »

« فلو أن ربَّ الناس أبقى نبينا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا »

« عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضيا »

١٩ — فاطمة بنت أسد

نسبها — فاطمة ابنة أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية أم على بن أبي طالب وأم اخوته طالب وعقيل وجعفر

قيل : انها توفيت قبل الهجرة ، والصحيح أنها هاجرت إلى المدينة وتوفيت بها

قال الشعبى : أم على فاطمة بنت أسد أسلمت وهاجرت إلى المدينة وتوفيت بها ، وقال على لأمه فاطمة بنت أسد : اكفى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء ، والذهاب فى الحاجة ، وتكفيك من الداخل الطحن والعجن ، وهذا يدل على هجرتها لأن عليًا إنما تزوج فاطمة بالمدينة

قال الزهرى : هى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وهى أيضًا أول هاشمية ولدت خليفة ، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدت

الحسن ، ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين ، لانعلم غيرهن ؛ ثم ان هؤلاء الثلاثة لم تصف لهم الخلافة ، فأما على فانه كان من اضطراب الأمور عليه إلى أن قتل كما هو مشهور ، وأما الحسن والأمين فخلعا

وقيل : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن فاطمة بنت أسد لما ماتت فى قميصه ، واضطجع فى قبرها ، وجزاها خيراً ، فقيل له : مارأيناك صنعت بأحد ماصنعت بهذه ؟ قال :

انه لم يكن بعد أبى طالب أبرّ بى منها ، إنما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة واضطجعت فى قبرها ، ليهون عليها عذاب القبر

قال الزبير : انقرض ولد أسد بن هاشم إلَّا من ابنته فاطمة بنت أسد وكان لها فضائل مشهورة ، ومآثر مشكورة ، مذكورة فى كتب التاريخ

٢٠ — فاطمة ابنة الخطاب

نسبها — هى فاطمة ابنة الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشية العدوية أخت عمر بن الخطاب

إسلامها — وقد أسلمت مع زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى قبل إسلام أخيها عمر ، وهى كانت سبب إسلامه كما مرَّ ذكره فى سيرته رضى الله عنه ، وهى إحدى العشرة الذين أسلموا أول الإسلام

وبقيت تعضد الإسلام ، وتحرض نساء قريش على اتباعه ، حتى دخل في دين الإسلام نساء ورجال كثيرون بسببها

مناقبها - وكانت أديبة فاضلة ، عاقلة ، محبة للخير ، كارهة للشر ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر

وفاتها - توفيت في مدة خلافة أخيها عمر بن الخطاب

٢١ — فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان

كانت فصيحة زمانها ، وأديبة عصرها وأوانها ، ذات جمال رائق وحسن فائق ، ودين وورع ، لم يسبق اليه أحد من نساء بني أمية

تزوجت بعمر بن عبد العزيز الأموي قبل أن يتولى الخلافة ، فغمرها بأمواله ، وأقنعها بنواله ، وهي لم تكن بأقل منه مالاً ، وقد عاشا في مبدئهما عيشة الرفاهية والتنعم ، ولما آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز رأى أن عبأها ثقيل لايحمله عاتقه ، ومن جملة ماصنعه أنه قال لفاطمة : إن أردت صحبتي فردي مامعك من مال وحلي وجواهر إلى بيت مال المسلمين فانه لهم ، واني لاأجتمع أنا وأنت في بيت واحد ، فردته جميعه ، ولم تبق لها منه خلال ابرة ، وبقيت معه في عيشة التقشف والضيق مع اتساع الخلافة والملك إلى أن مات

فلما انتقلت الخلافة إلى أخيها (يزيد بن عبد الملك) قال لها : ان عمر قد ظلمك فى مالك، وإنى رددته اليك فخذيه

قالت : كلا ، والله لا آخذه ، فما كنت لأطيعه حيًّا وأعصيه ميتًا

فأخذه يزيد وفرقه على أهله ، وبقيت فاطمة فى حالة زهد وعبادة وورع حتى لحقت، بزوجها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

٢٢ — فاطمة الفقيهة ابنة علاء الدين محمد بن احمد السمرقندى

كانت من الفقيهات العالمات بعلم الفقه والحديث ، أخذت العلم عن جملة من الفقهاء ، وأخذ عنها كثيرون ، وكان لها حلقة للتدريس ، وقد أجازها جملة من كبار القوم ، وكانت من الزهد والورع على جانب عظيم ، تزوجت بفخر الأنام العالم العلامة (علاء الدين القاشانى) ومكثت معه زمنًا طويلاً ، وقد ألفت المؤلفات العديدة فى الفقه والحديث ، وانتشرت مؤلفاتها بين العلماء والأفاضل

وكانت معاصرة للملك العادل (نور الدين الشهيد) وطالما استشارها فى بعض أموره الداخلية ، وأخذ عنها بعض المسائل الفقهية، وكان دائمًا ينعم عليها ويعضد مسعاها

وقد توفيت بمدينة حلب ودفنت فى مقبرة من قبور الصالحين ، وقبرها هناك مشهور (بقبر المرأة وزوجها) لأنها دفنت بعد وفاته بجانبه

٢٣ — هاجر (زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام)

كانت جارية مصرية ، ذات هيئة جميلة ، قد وهبها فرعون ملك مصر لسارة زوجة ابراهيم عليه السلام حينما كانت عنده ، وقد وهبتها سارة لابراهيم عليه السلام وقالت له :

إنى أراها امرأة وضيئة ، فخذها لعلّ الله تعالى يرزقك منها ولداً ، فتزوجها ابراهيم ، وقد رزقه الله منها اسماعيل عليه السلام، وذهب بهما إلى مكة، بسبب أن اسحٰق بن سارة تشاجر مع اسماعيل ذات يوم كما تفعل الصبيان ، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لاتسا كنني فى بلد وأمرت ابراهيم بعزلها عنها ، وقد أوحى الله اليه أن يأتى بهما مكة ففعل وأنزلها موضع (الحجر) وأمرها أن تتخذ عريشاً ، ثم قال :

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمْ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

ثم انصرف ، فاتبعته هاجر ، فقالت : إلى من تكلنا ؟ فلم يرد عليها شيئاً، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لايضيعنا ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وكانت مع هاجر قربة ماء فنفد الماء فعطشت وعطش الصبى ، فنظرت إلى الجبال التى أدنى من الأرض

فصعدت إلى (الصفا) وتسمعت ، لعلها تسمع صوتًا ، أو ترى أنيسًا، فلم تسمع شيئًا، ولم تر أحـداً ، ثم انها سمعت أصوات سباع الوادى نحو اسماعيل ، فأقبلت اليه بسرعة لتؤنسه وتحافظ عليه

ثم انها سمعت صوتًا نحو (المروة) فسعت، وما تدرى السعى كالانسان المجهد، فهى أول من سعى بين (الصفا والمروة) فأصبحت سنة السعى

من وقتها متبعة للان

ثم صعدت (المروة) فسمعت صوتًا كالانسان الذى يكذب سمعه منه حتى استيقنت ، وجعلت تدعو : يا الله قد أسمعتنى صوتًا فأغثنى فقد هلـكت ومن معى، فاذا هى بجبريل عليه السلام؟ فقال لها : من أنت ؟ فقالت : سرية ابراهيم عليه السلام تركنى وابنى هٰهنا

قال : و إلى من وكلـكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله تعالى

قال : فقد وكلـكما إلى كاف

ثم جاء بهما وقد نفد طعامهما وشرابهما، حتى انتهى بهما إلى موضع (زمزم) فضرب بقدمه ففارت عين ، فلذلك يقـال لزمزم (ركضة جبريل عليه السلام)

فلما نبع المـاء أخذت هاجر قربة لها ، وجعلت تستقى فيها تدخره فقال لها جبريل : لاتخافى الظمأ على أهل هـذه البلدة فانها (عين

لشرب ضيفان الله تعالى) وقال لها : إما أن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله تعالى بيتاً هذا موضعه

قالوا : ومرَّت رفقة من (جرهم) تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا : إن هذا الطير لحائم على ماء ، فأشرفوا فاذاهم بالمـاء ، فقالوا لها : إن شئت كنا معك فآنسناك ، والمـاء ماؤك ، فأذنت لهم فنزلوا بها وهم سكان مكة حتى شبَّ اسماعيل

وماتت هاجر قبل سيدتها سارة ودفنت فى (الحجر)

وسبق ذكر هـذه القصة فى قصة اسماعيل عليه السلام فى الجزء الأول من كتابنا أحسن القصص ، والله تعالى أعلم

انتهى بعون الله وتوفيقه تأليف الجزء الخامس من كتاب أحسن القصص

فى غرة المحرم سنة ١٣٥٣

تم طبعه ولله الحمد فى يوم السبت ٥ جمادى الثانية

الموافق ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤

والصلاة والسلام على سيدنا محمد فى المبدأ والختام

فهرس